الكتاب الثانى والسبعون

بحث موضوعى فى أعمق عقائد المسيحية

حقيقة المسيح

بقلم

القس صموئيل مشرقى

الكتاب الثانى والسبعون
بحث موضوعى فى أعمق عقائد المسيحية

حقيقـــة المســـيح

THE FACT OF CHRIST!
Who is He?

بقلـــم
القس صموئيل مشرق
رئيس المجمع العام
لكنائس الله الخمسينية

صـــدر
فى يناير ١٩٩٠
بالقاهرة ــ جمهورية مصر العربية ــ ت : ٧٧٥٦٧٦
٨ شارع أحمد باشا كمال جزيرة بدران

الإهـــداء

إلـــى
كل من ينشد الحقيقة لذاتها
ابتغاء مرضاة الله
فى فردوس النعيم

أهـــدى
هذه السطور النورانية
لكى تكون رجاء صالحا وعزاء أبديا لكل من يتقبلها

تقديـــم

ولما كان أساس كل دين عقيدته وأحكامه كانت الحاجة ماسة إلى تبيين الأصول التى يقوم عليها وهذا يستلزم بالضرورة الوقوف على قواعده الأساسية حتى تبرز الحقائق فى ثوبها البهى القشيب . ولذلك فقد قيل : « إن المعلومات القليلة تخرج الناس من ـــ الدين ـــ بينما البحث العميق يعيدهم إليه » وذلك لأن البحث هو الواسطة الوحيدة للتمييز بين العقائد وتقرير صحيحها من فاسدها لإظهار الحق من الباطل . ولذلك فقد قيل أيضا : « الحقيقة بنت البحث » وهى تبعاً لذلك مشاع لا يمكن الحصول عليه بالإيمان الوراثى المجرد أو الجدل العقلى البحت بعيداً عن البحث المضنى الشاق الكثير العناء !

ومن غريب ما نثبته هنا تلك المزاعم التى قام بنشرها بعض المؤلفين فى السنوات الأخيرة وقالوا فيها عن الاختلاف بين المسيحيين إلى حد عدم اتفاقهم بشأن شخص « المسيح » ، ولسنا نجد هنا ردا على ذلك أبلغ مما كتبه نياقة الأنبا غريغوريوس فى فاتحة محاضراته عن « لاهوت السيد المسيح » (ص ٧) قال : « إن جميع المسيحيين اليوم والأمس مجمعون على » هذه العقيدة ، ليس هناك خلاف بينهم فى هذه القضية ، إنهم جميعا على اتفاق فى لاهوت المسيح ، كلهم يؤمنون بلاهوته ، وأنه ابن الله الحى ، وأنه الله الظاهر فى الجسد ، وأنه الإله المتأنس ـــ الأرثوذكس والكاثوليك والبروتستانت يعلمون بهذا فى كتبهم وعلى منابرهم ... نعم هناك اختلاف لا يُنكر فى بعض المسائل الفرعية وكذلك فى طريقة التعبير ، لكن ليس هناك أى خلاف فى عقائد المسيحية العظمى ، فجميع المسيحيين يؤمنون بوحدانية الله وبتثليث الأقانيم ، وبلاهوت المسيح ، وبسر التجسد ، وبسر الفداء ـــ فلا صحة إذاً لتلك المزاعم التى تقول بوجود أى اختلاف بالنسبة لهذه العقائد ، وأى ادعاء من هذا النوع لا يخرج عن كونه من قبيل المغالطات » .

وقد أيد ذلك من قبل المرحوم الشيخ ناصيف اليازجى فى قصيدته العصماء التى أنشدها فى إثبات لاهوت المسيح ، وكان ضمن ما ورد بها فى تأكيد عدم اختلاف المسيحيين حول شخص المسيح قوله الذى نقتبسه بعد :

كم فى النصارى شيعة قد ناقضت أخرى وقد حكمت بما لم تحكم
سبعون أو مئة من الأحزاب فى خلف على لزم وما لم يلزم
يا طالما اختلفوا فما اتفقوا على شيء سواه فغيره لم يسلم

وبازاء هذا الاتفاق الجماعى فى المسيحية حول أهم وأخطر عقائدها ، صدعت للأمر الإلهى الذى كلفنى بإصدار هذا الكتاب وذلك لحفظ الأذهان من البلبلة وتبديد الحيرة المتضاربة لجيل أواخر القرن العشرين .

وفقنا سبحانه إلى الحق وهدانا إليه لضمان خلاصنا الأبدى ــ آمين ،،،

المؤلف

الفصـــل الأول
المخلص الإلهى

« ها أنا أبشركم بفرح عظيم ... أنه ولد لكم اليوم فى مدينة داود مخلص هو المسيح الرب » (لوقا ٢:١١)
« الذى من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد بالروح القدس من مريم العذراء وتأنس »
(قانون الإيمان)

● ● ●

يجدر بنا قبل بحث الأدلة الموضوعية القاطعة على لاهوت المسيح أن نبين معنى الدليل القاطع ـــ إنه فى لغة القانون الدليل الذى لا يقبل العكس أى لا يمكن أن يدحض فهو الذى يقطع الشك باليقين ويدمغ الحقيقة بالصدق التام الذى لا ترق إليه الشبهات أياً كان نوعها .

● **والدليل الأول ـــ من هذه الأدلة التى تثبت لاهوت المسيح ـــ نجده فى الإعلان عن المسيح « كالمخلص الإلهى »** : الذى جاء ليفدى البشر بنفسه . ويتقدم هنا مؤلف كتاب « المسيح إنسان أم إله » ليعلن بأنه إنما يقوم بمحاولة للتنقيب عن حقيقة شخصية المسيح التى حيرت الناس فى مختلف الأزمان والبقاع وهو يبدأ الفصل الأول من كتابه بالحديث عن « عقيدة المخلص » .

وهو وقد راعته حقيقة هذه العقيدة يحاول جاهداً إيجاد تفسير مقبول لها ومن ثم فإنه يردها على الفور إلى المنازعات والحروب التى قامت بين من يسميهم بالشعب المقدس ـــ شعب الله فى العهد القديم ـــ وبين أعدائهم من الأمم والشعوب المجاورة وكيف أن هذا الشعب الذى يشير إليه كان يستنجد بيهوه إلهه لكى يرسل إليهم مسيحاً يخلصهم من أيدى هؤلاء الأعداء (صفحة ٧)

ثم يعود فيقرر كيف تجددت أحلام هذا الشعب وأوهامه فى المسيح المخلص الذى

سينقذهم من سبى بابل ويقول عن ذلك ما يأتى نصه حرفيا : « ومن هنا كثرت الأقاويل والنبوّات والأساطير والأشعار حول هذا المسيح المخلص ، شكله وأوصافه ، سلالته وأعماله ، وقت مجيئه ، وطريقة عمله ، وكيفية انتصاره ... وغير ذلك من سجاياه ... أقاويل وأساطير ونبوءات وأحاجى ، نسج الخيال لحمّها وسداها وحاك الضيق خيوطها وسواها . » (صفحة ١٤) .

ورغم انتهاء السبى البابلى على يد كورش ملك الفرس وعودة اليهود إلى « أورشليم » المدينة المقدسة ، فإنهم لم ينعموا بشىء من الرخاء والحرية إلا لفترة محدودة إذ سرعان ما غزت بلادهم جيوش الأمبراطورية الرومانية فأصبحت بذلك مستعمرة تحت حكم الرومان ... وهنا تجددت باليهود الأحلام والأوهام فى ظهور مسيح جديد يخلصهم من ربقة الرومان ويعيد إليهم حريتهم ومجدهم الغابر ويحقق لهم وعد إلههم يهوه بإقامة امبراطورية أرضية تكون أورشليم عاصمتها ، وهكذا كثرت الأقاويل والتكهنات وتعددت الأساطير والأقاصيص عن هذا المسيح المخلص . » (صفحة ١٦)

• العقيدة بين الاسطورة والحقيقة :

كان لا بد من حدوث ازدواج فى رأى الكاتب تجاه هذه العقيدة مرجعه الأسلوب الذى اتبعه فى بحثه لأصلها فيرده تارة إلى وعود ونبوّات وطوراً إلى أوهام وخيالات ومن ثم فإنها قد تأرجحت لديه بين الحقيقة والاسطورة ، فبينما يقتبس من أقوال الأستاذ العقاد الواردة فى كتابه ــ حياة المسيح ص ٢٨ ــ ما يثبت به صدق هذه العقيدة وأن البشر منذ فجر الخليقة ينتظرون قدوم شخص إلهى يكون المخلص الموعود بالنسبة لهم مؤيدا بذلك حقيقتها ، إذا به يأخذ فى نفس الوقت عن كتاب ــ الإنسان الخالد ص ٤٩ ــ للكاتب الأمريكى فالتون أورسلر ، ما قاله عن فكرة « المسيح المنتظر » بأنها ما هى إلا أسطورة يهودية قد رددتها معظم الشعوب القديمة ، وهى فى نظره مجرد قصة خرافية بل إنه يعتبرها خرافة عالمية ! وهذا موقف متناقض لسنا ندرى بازائه فى أى جانب من الجانبين يقف هذا الكاتب الحديث (ص ١٩ و ٢٠) وهو ــ بعد هذا كله ــ مهما تكن محاولاته فى تصوير هذه العقيدة بصورة الخرافة والأسطورة ووصفه لها حتى بعد تطورها بأنها لم تكن إلا نوعا من التنفيس عن الكرب الذى أحس به شعب مستعبد ينتظر يوم الخلاص على يد بطل من أبطاله ، وأن مثل هذه الفكرة « فكرة المخلص المنتظر » لا يخلو منها تاريخ شعب من الشعوب أو دين من الأديان القديمة (ص ٢١) فإن أقوال الأستاذ العقاد التى

اقتبسها تقطع عليه الطريق وتؤكد من جميع الوجوه أن هذه العقيدة لا يمكن أن تكون مجرد أسطورة وإنما هى حتما حقيقة ، وها هو نص هذا الاقتباس يؤيد ما نقول نثبته فيما يلى :

« يقول الأستاذ العقاد ... يدل علم مقارنة الأديان على شيوع الإيمان بالخلاص وظهور الرسول المخلص فى زمن مقبل ، وظهر من عقائد القبائل الحمر فى القارة الأمريكية أن القبائل التى تؤمن بهذه العقيدة غير قليلة فى الأمريكتين ، وليس فى هذا عجب ، لأن الرجاء فى الخير أصل من أصول الديانة والأمل فى الصلاح مادة من مواد الحياة الإنسانية فى طلب الكمال والخلاص من العيوب ، وقد يشتد هذا الأمل حين تشتد الحاجة إليه . »

ونضيف إلى ما تقدم ما يرتبط بهذا الاقتباس من قول العقاد نفسه فى كتابه ــ عبقرية المسيح ص ٩٠ ــ من أنه لو أن مؤلفا بعد ذلك العصر أراد أن يخلق رسولا يوافق رسالة السيد المسيح المنشودة لوقف به الخيال دون ذلك التوفيق المطبوع » ــ فمن هذا الذى يكون باستطاعته أن يخلق رسالة عن هذه الصورة الحقيقية التى لشخصية المسيح وهى فيما لو لم تكن موجودة فعلا لتوقف أعظم خيال دون رسمها وتصويرها !؟ »

وفضلاً عن ذلك فإننا نجد أيضا فيما سطره قلم العقاد فى كتابه ــ مطلع النور ــ عن ظهور عيسى ما يفوق كل تصور فى تأييد حقيقة أن عيسى هو المسيح « المخلص المنتظر » ــ قال :

فى عصر الميلاد : « ترقبت النفوس بشائر الدعوة الإلهية من كل جانب كما يترقب الراصدون كوكبا حان موعد طلوعه » وكان موعد الألف الرابعة من تاريخ الخليقة موعداً مقدوراً فى عرف الأكثرين لظهور المخلص الموعود ... وقد تكاثر النذيرون قبيل مولد المسيح وهم المنذورون لصحبة المخلص المنتظر ، لأن مولده عليه السلام « وافق نهاية الألف الرابعة من بدء الخليقة على حساب التقويم العبرى » وهو الموعد الذى كان منتظراً لبعثة المسيح الموعود ، لأنهم كانوا ينتظرونه على رأس كل ألف سنة كما جاء فى المزامير ، وإن عمر الدنيا أسبوع إلهى ، تنتهى ستة أيام منه فى العناء والشقاء ويأتى اليوم السابع بعد ذلك كما يأتى يوم السبت للراحة والسكينة ، فيدوم ألف سنة كاملة هى فترة الخير والسلام قبل فناء العالم ، ولا يزال الغربيون يعرفونها باسم « الألفية » Mellinium ويطلقونها على عصر موعود بالسعادة والسلام ، والذين قدروا أن القيامة تقوم بعد سبعة آلاف سنة من بدء الخليقة كانوا يؤجلون قيام ملكوت السماء على الأرض إلى نهاية الألف السادسة ويومئذ تسود دولة المسيح الموعود » (صفحة ١١٤) .

فهل تتفق هذه الأقوال الدقيقة الأمينة التى سطرها الأستاذ العقاد وهو كاتب نزيه ومنصف مع مزاعم فالتون أورسلر الكاتب المسيحى إسما والذى يعتبر ــ ويا للأسف ــ عقيدة « المسيح المنتظر » أسطورة يهودية بل إنها فى نظره مجرد خرافة عالمية !؟ أليس ما ذهب إليه هذا الكاتب الأمريكى هنا هو بعينه الموقف الذى وقفته الشيوعية من شخصية المسيح إذ اعتبرته فى نظرها مجرد أسطورة خرافية ... !

يحدث هذا بعد مضى ألفى عام تقريبا على مولد المسيح الذى بدأ به التقويم الميلادى الذى تؤرخ به جميع بلدان العالم وهذا فى حد ذاته لأبلغ شهادة قدمها التاريخ نفسه لحقيقة وجود المسيح إذ هل يعقل أن يكون شخصية خرافية وقد غطى شخصيات زمانه ، وهل كان يسكت أعداء المسيحية فلا ينشرون عنه فى كل مكان بأنه مجرد خرافة !؟

● العقيدة فى الديانات القديمة :

وهكذا منذ فجر التاريخ الغابر السحيق انبعثت أنوار المسيح « المخلص الإلهى » خافتة باهتة حيناً وواضحة ساطعة حينا آخر ومن ثم لم يكن هناك أدنى غرابة لدى الذين يدرسون علم مقارنة الأديان فى ملاحظة وجود هذه العقيدة الثابتة فى الديانات القديمة . يذكر كتاب « نور من الشرق القديم » لمؤلفه جاك فنيجان : بأن عقيدة « المخلص » عامة بين البشر بثها الخالق فى ضمير خلقه ، فكان المصريون الأوائل يترقبون « المخلص » المنقذ بعد زوال الدولة القديمة ، وروى برستيد عن الحكيم أيبور أن المخلص الموعود « يلقى بردا على اللهيب ويتكفل برعاية جميع الناس ويقضى يومه وهو يلم شمل قطعانه » وقد كان البابليون يؤمنون بعودة « مردخ » إلى الأرض فترة بعد فترة لقمع الفتنة وتطهيرها من الفساد ، وكان المجوس يؤمنون بظهور رسول من إله النور كل ألف سنة ينبعث فى جسد إنسان وكانوا يحتفلون بالليلة التى يتناقص فيها الليل ويتزايد النهار ترحابا بمولد النور الذى سيتجسد ! وأما عقيدة الأغريق فقد عبر عنها أسكيلوس الشاعر الأغريقى القديم فى قصيدته المشهورة التى عنوانها « بروميثوس المقيد » وقد ألمح فيها عن انتظار هذا المخلص الموعود قبل ميلاد المسيح بستة قرون فقال : « لا تنتظروا خيراً لهذا العالم ما لم ينزل إلى أرضنا شخص رفيع عجيب يحمل عن البشرية آلامها وآثامها » ، وتظهر هذه العقيدة عند البوذيين فى قصيدة يرددونها عن غوتاما ــ بوذا ــ مؤسس البوذية يقولون فيها : « متى يأتى المخلص ، متى يأتى منقذ العالم العظيم ؟ » **وعند العبرانيين نجد أن عقيدة انتظار مسيا عقيدة دينية ثابتة وفى المسيحية يأتى الإتمام لكل هذه الآمال والأشواق بظهور هذا « المخلص الإلهى » فى شخص « المسيح الرب » !**

يتضح من هذا أن فكرة تجسد الآلهة وظهور مخلص فى الديانات القديمة لم تكن سوى تمهيد جاء ليعد الناس لقبول الفكرة الأصيلة الحقيقية ألا وهى تجسد الله الكلمة لأجل خلاص البشر !

وإذاً ما يأخذه البعض على حقائق المسيحية هنا بأن لها نظائر فى تلك الديانات الغابرة ظناً منهم أن مثل هذا التشابه يضعف من مكانتها إنما هو مردود بتأكيد أن الحق الإلهى لا بد أن يكون واحداً وهو معلن من مصدر واحد للجميع على السواء ، فمن صفت روحه من البشر وسمت مداركه يصل إليه حينئذ هذا الحق واضحا ، ولكنه قد يصل مشوها بقدر استعداد النفوس القابلة له ومقدار صفائها ولذلك يدرك بعضهم الحق كاملاً بينما يصل البعض الآخر إلى أجزاء متناثرة منه فيقفون على جوانب من الحقيقة دون الجوانب الأخرى وقد يتوقفون عند هذا الحد !

• العقيدة بين التخصيص والتعميم :

وإذ الأمر كذلك فلماذا إذا أوقع مؤلف كتاب « المسيح إنسان أم إله » نفسه فى متاهات هى تلك التى أدت به إلى حصر فكرة « المسيح المخلص » فى الدائرة اليهودية الضيقة ، وقصر معناها على « الانقاذ السياسى » الأمر الذى يتضح من نصوص الانجيل بطلانه ، لأنه حين قدم اليهود المسيح إلى المحاكمة واتهموه بأنه قد جعل من نفسه ملكا بدل قيصر ـــ بعد أن حاولوا اختطافه من قبل لجعله ملكا لهم بل وقاموا فى أحد الشعانين باستقباله كملك ـــ حقق معه بيلاطس الوالى الرومانى فى ذلك الاتهام فأقر المسيح بأنه قد ولد ملكا بالفعل ولكنه فند هذه التهمة بقوله :

« مملكتى ليست من هذا العالم . لو كانت مملكتى من هذا العالم لكان خدامى يجاهدون لكى لا أسلم لليهود . **ولكن الآن ليست مملكتى من هنا** » (يوحنا ١٨:٣٦) وقد شهد لنفس هذه الحقيقة الكاتب المشار إليه بقوله : « كان عيسى يدعو إلى طاعة الرومان وقيصرهم أوغسطس مستعمرى إسرائيل ، وكان يحث مواطنيه على دفع الجزية لهم بل أنه دعا قومه إلى إطاعة قيصر كما يطاع الله ... وذلك لأنه كان يتحاشى الجدل السياسى (ص ٦٠) فكيف يكون من المستساغ أن يوصف هكذا ممن يعتبره بأنه قد جاء ليكون « المخلص المنتظر » الذى يحرر اليهود من نير الرومان !؟

ومع أننا نعتقد بسيادة ملكوت المسيح على الأرض فى نهاية الألف السادسة ـــ كما ذكر العقاد مما أثبتناه له فى موضع الاقتباس عنه ، وهو مؤيد بالقول : « لا تقوم الساعة حتى

ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا » إلا أننا نؤمن « بالمسيح المخلص » فى معنى أشمل وأوسع نطاقا من سيادته المقبلة وحكمه القادم كيفما يكن شكله أو نوعه أو مدته ... **وبذلك يظهر مفهوم « الخلاص » الذى جاء به المسيح فى معناه الصحيح : فإن إيماننا من هذا الوجه يقوم على فكرة « الخلاص من الخطيئة » وهو لا ينحصر فينا فقط كمسيحيين لأنه مقدم لجميع الناس بلا فرق بين واحد منهم وآخر ، فلا محسوبية هنا ولا استثناء ،** إذ أن العائلة البشرية بأسرها قد تلقت من الله سبحانه الوعد بالمخلص عن طريق أبويها الأولين فإنهما لم يطردا من الجنة إلا بعد أن سطع فى سماء ليلة الطرد السوداء نجم يقود إلى « وليد مزود بيت لحم » ! لقد صار لهما وللنسل البشرى كله أكبر رجاء فى الوعد المبارك بنسل المرأة الذى سيسحق رأس الحية (تك ٣:١٥) وكان ذلك الوعد بمثابة أول نبوءة عن « المخلص الإلهى » وتوالت من بعده الرموز والإشارات كما تعاقبت الصور والنبوءات **وكلها سلكت طريقاً واحداً لم تحد عنه قط ــ هو تقديم صورة كاملة لهذا « المخلص المنتظر » والعمل الأساسى الذى سيقوم به وهو فداء البشر وتولى أمر خلاصهم** ومن ثم كان من أشهر ألقابه « الفادى » و « الولى » وذلك منذ أمد بعيد ! ولقد أدرك هذه الحقيقة السيد محمود أبو الفيض فشهد لها فى كتابه ــ وحدة الدين والفلسفة والعلم ــ بقوله : « **اتفق جميع المسيحيين على كون المسيح أتى لأجل خلاص العالم** ... ومع أن المسيحية بدأت كفرقة يهودية إلا أن اليهود إضطهدوا دعاتها لمخالفتهم فى الدعوة التى راموا نشرها لما كان مألوفا عند اليهود ولقولهم بأن المسيح المنتظر هو عيسى ابن مريم » (صفحة ١٣١)

• العقيدة فى معناها الصحيح :

وبقى أن نسأل : « من يكون المسيح إذا ؟ » إنه بكل تأكيد « المخلص الإلهى » « مشتهى كل الأمم » (حجى ٢:٧) ونعود فنتساءل : « أهو مجرد إنسان أم إله الكون ورب الوجود !؟ لقد وصفته كتب العهد الجديد بما وصفت أسفار العهد القديم به الله سبحانه ، فأخبرت عنه بأنه « الأول والآخر » و « ملك الملوك ورب الأرباب » كما أعلنت عنه بأنه « المخلص » ، وقد تحدث الله تعالى من قبل بلسان عبده اشعياء فقال : « أنا الرب . وليس غيرى مخلص « وأيضا » التفتوا إلىّ وأخصلوا يا جميع أقاصى الأرض لأنى أنا الله وليس آخر » (أص ٤٣:١١ ، ٤٥:٢٢) وقد قرأنا فى إنجيل لوقا ٢:١١ عن ولادة المخلص الذى هو المسيح الرب ، ويحدثنا بولس عنه بأنه هو الذى جاء إلى العالم ليخلص الخطاة ، وأنه هو الذى يخلص إلى التمام الذين يتقدمون به إلى الله إذ هو حى فى كل حين ليشفع فيهم (١تى ١:١٥) و (عب ٧:٢٥) ويستخدم الوحى عبارة « مخلصنا يسوع المسيح »

لتكون مرادفة لعبارة « مخلصنا الله » فى مواضع عدة يضيق المقام عن ذكرها ويكفى هنا مجرد الإشارة إليها !

فإذا كان الله وحده هو المخلص وليس آخر سواه ، والسيد المسيح هو كذلك المخلص الذى « ليس بأحد غيره الخلاص » (أعمال ٤:١٢) فمن يكون المسيح إذا !!؟ وهل من سبب حينئذ يدعو لإنكار حقيقة ظهور هذا « المخلص الإلهى » ، والتنكر لقدرة الله سبحانه فى أن يظهر فيه بالكيفية التى يراها ليعمل العمل الذى يمجده ولكى تخلص له ذراعه . وهذا بعينه هو نفس ما أكده اشعياء النبى بقوله عن الله : « فرأى أنه ليس إنسان **وتحير من أنه ليس شفيع** . فخلصت ذراعه لنفسه » (أص ٥٩:١٦) وبلسانه تعالى أيضا فى القول : « فنظرت ولم يكن معين وتحيرت إذ لم يكن عاضد فخلصت ذراعى » (أص ٦٣:٥) **وليس التحير سالف الذكر سوى تعبير بالطريقة البشرية يراد به أنه سبحانه ــ قد اندهش وتعجب لأنه لم يكن هناك حل فى إنقاذ البشر وخلاصهم بخلاف تداخله الشخصى ، فلا يشفع عند الله إلا الله ... فإن لله الشفاعة جميعا** » ومن ثم فإنه تبارك اسمه ــ حسب مراحمه وحسب كثرة إحساناته صار « مخلصا » (أش ٦٣:٨) هذا يفسر مخاطبة العزة الإلهية بالقول المتواتر « اللهم أنى أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك » وأيضا بالقول : « لا ملجأ من الله إلا إليه » ــ **ولسنا ندرى كيف يمكن أن يكون الله المنتقم هو نفسه المنعم ، وكيف يكون هو الشفيع وفى نفس الوقت يقوم بتقديم الشفاعة لنفسه !؟** قد يقال الجواب عن ذلك انما هو فى تعدد صفات الله مع بقاء كيفيات ذلك التعدد مجهولة ولكن ليس هذا الحل هو الموافق ومن ثم جاء اعتراف أحدهم يقول : « هذا إشكال لم يتأت لنا حله نسأل الله تعالى أن يهدينا » وإقرار آخر يخاطب به المولى بالقول : « وما عرفناك حق معرفتك » وقد يضاف إليه هذين القولين الآخرين القول : « عرفت ربى بربى ولولا ربى ما عرفت ربى » وأيضا « عرفت ربى بما عرفنى به نفسه » .

وهذا كله صدى لما قاله السيد المسيح لمعاصريه : « لو عرفتمونى لعرفتم أبى أيضاً » وقوله أيضا لتلاميذه : « لو كنتم عرفتمونى لعرفتم أبى أيضاً » (يوحنا ٨:١٩ ، ١٤:٧) .

الفصـــل الثـــانى
عمانوئيل ـ الله معنا

« ولكن يعطيكم السيد نفسه آية . ها العذراء تحبل وتلد ابنا وتدعو اسمه عمانوئيل » (أشعياء ٧:١٤)
« وهذا كله كان لكى يتم ما قيل من الرب بالنبى القائل هوذا العذراء تحبل وتلد ابنا ويدعون اسمه عمانوئيل الذى تفسيره الله معنا » (متى ١:٢٢ ، ٢٣)

● ● ●

يرتبط ظهور « المخلص الإلهى » الذى قدمنا منه الدليل الأول على لاهوت المسيح « بالميلاد العذراوى » لهذا المخلص أى ولادته من عذراء لم تعرف رجلا ! وهو بهذا الميلاد الفريد أصبح من أشهر ألقابه لقب « عمانوئيل » !

ومن عجب أن مؤلف كتاب « المسيح إنسان أم إله » وهو يسلم بحقيقة هذا « الميلاد العذراوى » بقوله « أن عيسى قد ولدته أمه وهى مازالت عذراء » إلا أنه يثبت بعدئذ مباشرة رأى البعض فى ذلك بأنهم يروته أسطورة تكمل رواية المسيح المخلص وفقا لما رددته الشعوب القديمة عن أبطال وآلهة لها ولدوا من عذروات ، ويقدم لذلك أمثلة مما يقال بوجوده من هذا القبيل لدى الفرس والمصريين والصينيين والروم وهكذا ... (ص ٢٣) .

ومعلوم أن مثل هذا الزعم يثبت الحقيقة لا ينفيها إذ هو بالأحرى شهادة ضمنية مؤكدة لوحدة الحق فى الوجود وتوحد مصدره وأنه معلن للبشرية جمعاء منذ أقدم العصور ، وفضلا عن ذلك فإننا عند امتحان ما ورد بتلك الأساطير الوثنية عما اعتقدت به من ميلاد عذراوى لآلهتها نجد أنه مجرد خرافات غير حقيقية ولا وجه للشبه بينها وبين ميلاد مسيا المعجزى ! (انظر كتاب مسيا ص ٧٠) .

ثم يعود هذا الكاتب فيختلق تناقضا فيما بعد بين هذا الميلاد العذراوى وما يسميه

بأسطورة المسيح المخلص فيدعى على كتبة الأناجيل تحويرهم لآيات العهد القديم ونبواته حتى ينطبق ما جاء فيها عن المسيح المنتظر ليكون المقصود به عيسى ... وأنه لما كانت أكثر النبوات شيوعا عن المخلص أنه سيكون من سلالة داود ، من أجل هذا قرر كُتّاب الأناجيل أن عيسى من سلالة داود وأجبروا مريم على أن تترك بلدتها الناصرة وتذهب إلى بيت لحم التى كانت منبت داود لتلد عيسى ! (ص ٣١) ونراه لزاما علينا هنا أن نبين أن نبوءات العهد القديم ونصوصه قد أشارت إلى قدوم المسيح المنتظر وتحدثت عن معجزة ميلاده العذراوى كما ربطت بينه وبين داود بل وأعلنت عن مكان وزمان ولادته ولذلك فإن الفترة التى جاء فيها المسيح كانت ــ كما يقول صاحب كتاب : « الميلاد من عذراء » فترة قلق وانتظار ... فالكل كان ينتظر قدوم مسيا ... فقد « كان الشعب ينتظر والجميع يفكرون فى قلوبهم عن يوحنا لعله المسيح » (لوقا ٣:١٥) فاليهود إذاً كانوا فى انتظار حتى يروا فى أية صورة سيأتى المسيا ، وأى عمل سيقوم به وهل سيتغلب على قوة الرومان ويؤسس لهم مملكة عالمية مجيدة !؟ هذا هو الانتظار الذى ولدته بالطبع أصوات النبوات والذى كان صدى للوحى القديم ... ... **أما النبوات الأخرى التى أعلنت أن المسيح سيأتى من نسل داود وأنه سيولد فى بيت لحم فقد كان من السهل فهمها لذلك انتظر اليهود ولادة المسيا فى بيت لحم مدينة داود « وهذا ما أقر به رؤساء الكهنة وكتبة الشعب حين سألهم هيردوس الملك أين يولد المسيح ؟** فقالوا له فى بيت لحم اليهودية لأنه هكذا مكتوب بالنبى « وأنت يا بيت لحم أرض يهوذا لست الصغرى بين رؤساء يهوذا لأن منك يخرج مدبر يرعى شعبى اسرائيل » (متى ٢:٤-٦) فيالها من شهادة بتطابق النبوة مع الواقع مما ينفى ما ذهب إليه هذا الكاتب من تحوير ينسبه باطلا لكتبة الإنجيل باقتباسهم لآيات العهد القديم وتطبيقها على المسيح **ولسنا ندرى على من ستنطبق إذا فيما لو لم تكن منطبقة عليه بشهادة أحبار اليهود أنفسهم قبل إرشاد الوحى الإلهى لكتبة الإنجيل بإعلان هذا الانطباق الفريد وإثباته !!**

أما دعوى إجبار مريم على ترك بلدتها الناصرة والذهاب إلى مدينة بيت لحم لكى تلد المسيح فى مدينة داود فهى أبعد ما يكون عن الحقيقة والواقع ، لأن ذلك إنما كان لإتمام نبوءة ميخا سالفة الذكر فقد أعلنت عن مدينة بيت لحم كالموضع الذى سيولد فيه المسيا (أص ٥:٢) ولكن سواء عرف يوسف ومريم هذه الحقيقة أو لم يعرفاها إلا أنهما لم يأخذا طريقا خاصا لتحقيق هذه النبوءة من ذاتهما . لكن الله كان طول الوقت ساهراً لإتمام أقواله حتى لو استدعى ذلك إجراء المعجزات !! وهذا ما يقرره

إنجيل لوقا (٢:١-٦) « وفى تلك الأيام صدر أمر من أوغسطس قيصر بأن يكتتب كل المسكونة ... فذهب الجميع ليكتتبوا كل واحد إلى مدينته . فصعد يوسف أيضاً من الجليل من مدينة الناصرة إلى مدينة داود التى تدعى بيت لحم لكونه من بيت داود وعشيرته ليكتتب مع مريم امرأته المخطوبة وهى حبلى . وبينما هما هناك تمت أيامها لتلد » . ولا يمكننا أن نقول هنا بأن أوغسطس قيصر ، وهو فى روما ، كان له أى شغف أو فائدة بالمكان الذى سيولد فيه المسيح . ومع هذا فإنه قبل أن تحبل العذراء مريم بيسوع كان الجنود فى روما قد بدأوا تنظيم اكتتاب (عملية تعداد) لكل المسكونة ، ومهمة كهذه لا يمكن فى ذلك الوقت انجازها فى أقل من سنة ، وأنه من المستحيل تصديق أنه بمجرد الصدفة استمر هذا العمل فى طريقه حتى أحضر يوسف ومريم إلى بيت لحم فى الميعاد المضبوط الذى فيه تمت أيام مريم لتلد » لكن السر هو أن كلمة الله لا تسقط ، فإن لزم الأمر إلى إمبراطورية عالمية ، فإن الله يجهزها ويسخرها لإتمام كلمته . لذا فإن ذراع القانون الطويلة امتدت هناك من روما وأحضرت يوسف ومريم إلى البقعة المضبوطة حيث وعد الله أن يولد المسيا !!

« أما موضوع نسب المسيح لداود الذى ينكره هذا الكاتب بحجة عدم ثبوت نسب مريم إلى داود والزعم بأن الإنجيل إنما يربط ما بين المسيح وداود عن طريق يوسف النجار الذى هو من سلالة داود ، وإن هذا الربط قد استدعى من كتبة الأناجيل جعل يوسف خطيب مريم أبا لعيسى على حد قوله مع محاولته إيجاد تناقض فى عدد الأجيال المتعلقة بهذا النسب فواضح منه عدم تعمقه فى بحث هذا الأمر ومن ثم لم يستطع الوقوف على حقيقته :

أما التناقض فى عدد الأجيال فمرجعه أن حذف بعض الأسماء من جداول الأنساب لبعض الأسباب كان أمراً مألوفا لدى اليهود ، ولا يجب أن يفوتنا هنا الفرق بين سلسلتى النسب الواردتين فى إنجيل متى ص ١ وإنجيل لوقا ص ٣ فالأولى هى سلسلة نسب يوسف بن سليمان بن داود بينما الثانية هى سلسلة نسب مريم بنت ناثان بن داود **ــ متى يعود فى سلسلة النسب التى يذكرها عن المسيح إلى إبراهيم باعتباره أب الشعب اليهودى مارا فى نفس الوقت بداود الملك ليعلن لنا أنه الوارث الشرعى لعرش داود ، بينما لوقا يعود بسلسلة النسب وهى خاصة بمريم أمه إلى آدم ليكشف لنا عن حق المسيح « كابن الإنسان » فى أن يكون وريثا لكل شىء** أما نسبة يوسف إلى هالى فقد أجمع المفسرون أن هالى هو أبو مريم فهو أبوه حسب الشرع لزواجه من ابنته مريم وكانت عادة اليهود وضع اسمه بدل اسمها وهذا يتضح منه أن يسوع بحسب النسب الوارد فى البشارتين هو بكل يقين متناسل من داود بمعنى أن لوقا يأتى بنسبه عن طريق أمه مريم وأسلافها ومتى

يورد نسبه عن طريق يوسف أبيه الشرعى ، الأمر الذى يكسبه حق وراثة عرش داود إتماماً للنبوات التى قيلت عنه !

ولما كان لوقا قد اختص بنسب مريم فإنه يشير بكل جلاء أن يوسف لم يكن فى الواقع أبا ليسوع بل كان هكذا على ما كان يظن (أى حسبما كان شائعاً) وكذلك متى فإنه لم يقل فى نهاية سلسلة النسب بأن يوسف ولد يسوع بل قال ويعقوب ولد يوسف رجل مريم التى ولد منها يسوع » !

ومع ذلك فلقد كان من الضرورى أن ينتسب يسوع إلى يوسف قانونا لا على اعتبار أن يوسف أب طبيعى له بل باعتباره رجل مريم ــ فإن حدوث هذا الميلاد العذراوى وهى مخطوبة له قد جعلها فى حكم الزوجة القانونية حتى لا تصبح فريسة للحيرة والارتباك ولكى يكون بذلك الحامى القانونى للطفل يسوع !

إذاً ليس هناك مفاضلة بين المسيح كابن داود وبينه كابن العذراء ولا تجريد له من معجزة ميلاده العذراوى لتقرير نسبه إلى داود وإعلانه بذلك كالمسيح المنتظر ولا معنى لقول هذا الكاتب إذاً من أننا طمسنا معجزة الميلاد سعيا وراء أسطورة قديمة هى إقامة المسيح ابن داود !

• الظروف التى أحاطت بهذا الميلاد :

كان لا بد للأناجيل وهى تسرد واقع هذا الحادث التاريخى الخالد من أن تبين الملابسات التى تحيط به والتى كانت تستلزم بطبيعة الحال تكتم خبره وعدم التصريح به لأحد وهذا ما يقر به هذا المؤلف نفسه (ص ٢٤) فقد كان هذا الأمر منذ البداية ــ كما هو متوقع ــ موضوع دهشة واستغراب حتى بالنسبة للعذراء نفسها وهذا واضح مما أجابت به جبرائيل عند إبلاغه لها ببشرى هذا الميلاد المعجزى بقولها : « كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلاً » (لوقا ١:٣٤) فهى لم تكن تتوقع أن تحبل وهى عذراء لأن هذا أمر فى حكم المستحيل أما الاحتمالات التى يدعى هذا الكاتب حدوث الحمل فيها مع بقاء العذراوية وعدم الإلتصاق برجل فإنها من نسج الخيال ولا وجود لها وهى لذلك غير قابلة للتصديق ، **ومن ثم فإن الميلاد العذراوى فى حد ذاته يؤكد بأن الشخص الوحيد الذى ولد من عذراء لم يمسسها بشر هو المسيح فقط إذ لم يحدث فى التاريخ قط أن عذراء ولدت ــ وهى مازالت عذراء ــ إلا مريم العذراء التى ولد منها المسيح !**

وأما موقف خطيبها يوسف منها وتفكيره فى تركها فى البداءة فأمر لا غرابة فيه إذ أنه كان يعلم بأنه ليس أبا للطفل الذى حبلت به وقد حيره ذلك ولم يجد له تفسيراً أو تعليلاً منطقيا ، ومن ثم فقد أراد تخليتها سراً (متى ١٩:١) لأن التشهير بها كان معناه أنه يضعها تحت حكم الموت رجما بحسب شريعة موسى (تث ٢٢:٢٠ ، ٢١) **وهنا تدخل الله وأخبر يوسف فى حلم بحقيقة الأمر ، فانتهى على الفور شكه وآمن بأن خطيبته مريم مازالت عذراء مع أنها وجدت حبلى** ، وهذا يضيف برهاناً قوياً إلى صحة الرواية لأن يوسف دون باقى الناس كان لديه أكبر الأسباب لعدم تصديقها ... !

لم يكن المسيح إذاً ابنا طبيعيا ليوسف ــ ولكن ماذا عن الاحتمال الآخر الذى يجول فى عقول بعض المعترضين وهو أن المسيح كان ابنا غير شرعى للعذراء مريم الأمر الذى يشير إليه الكاتب مقتبساً من كتاب (قصة الحضارة) لديورانت ــ وهو كتاب تختلط فيه الأمور وخاصة فى هذا الموضوع الخطير ــ ورأينا فيما اقتبسه منه بأنه لم يكن من اللائق فى هذا المقام سرد مثل هذه الآراء النافهة التى أثيرت فى هذا الصدد لأن القلم يجب أن يخجل من ذكرها ولا يعنينا من هذا الوجه بشىء موقف اليهود المعاصرين للمسيح منه حين قالوا له متفاخرين : « إننا لم نولد من زنا » (يوحنا ٨:٤١) لأن قصة الميلاد العذراوى كانت ولا تزال موضع استهزاء اليهود وتهكمهم بإقرار الكاتب نفسه (ص ٢٦) .

ومع أن المرجع الأصلى فى هذه القصة إنما هو لنبوءة نطق بها أشعياء النبى قبل ظهور المسيح بسبعمائة وخمسين عاما إلا أن اليهود قد جهلوها بالطبع عند حدوثها لأنه لم يسمع أحد قط عن ميلاد معجزى كهذا من قبل ولم يكن هناك من يتصوره !!

● **تفنيد الإدعاء بشك المسيحيين فى هذا الميلاد**

يذهب هذا الكاتب الحديث إلى حد الإدعاء على المسيحيين أنفسهم بأنهم ينكرون هذا الميلاد العذراوى لأن الأم العذراء قد حفظت جميع هذه الأمور فى قلبها فتكتمت الأمر ولم تفشه إلا لنفر قليل من الأخصاء وذلك لدقته وبعده عن التصديق ، وحتى بعد أن علم به خطيبها تكتماه عن الجموع ، وما كان يمكن أن يذيعاه فى عالم مشبع بالشكوك والافتراءات التى لم يكن من الممكن أن تفهم ذلك الاختبار الفريد الفذ .

هذا ما اقتبسه من كتاب « حياة يسوع » لبترسون سمث وحاول أن يسند به دعواه سالفة الإشارة ، وقد فاته أن نفس هذا المصدر الذى يقتبس منه يقول بعدئذ مباشرة :

« ولا يغرب عن البال أن التلاميذ قبلوا المسيح فى بادىء الأمر كانسان ... وتدريجيا أخذت أحاسيسهم تتعمق وتزداد فى الدهشة والرهبة وقد حاروا فى أمرهم ولم يرد هو أن يجلو ما غمض عليهم ولكنه احتفظ بالسر الإلهى ... ولم يبدأ بإعلان ذاته إلا قبيل نهاية حياته ولم يشرق عليهم فجر هذا الإعلان الهائل إلا بعد القيامة ... والصعود ، وحلول الروح القدس وبدء تدوين الأناجيل حينئذ أزيح السر عن ميلاده العذراوى وما ورائه من أسرار التجسد والألوهية ، فبحسب هذا الترتيب المنطقى الطبيعى نجد أن مسألة الميلاد العذراوى لم تخطر على بال وما أصبحت موضع الحديث المتواتر إلا بعد الاقتناع بألوهية المسيح ، وبدون هذا لم يكن لها معنى على الإطلاق » (صفحتى ٣٣ ، ٣٤ من كتاب حياة يسوع) .

ويستطرد مؤلف كتاب « المسيح انسان أم إله » إلى مسألة تعتبر بحق من غرائب الزمن بادعائه بأن كتبة الأناجيل كانوا يخشون ذكر هذا الميلاد العذراوى حتى أنه لم يشر إليه منهم سوى متى ولوقا أما الباقون فيعرضون عن ذكره حتى بولس رسول المسيحية ويوحنا حبيب المسيح ، وأن الفضل فى تأكيد هذه المعجزة ورفع مريم إلى أعلى المراتب بين نساء العالمين واعتبارها وابنها آية للعالمين قد جاء فيما بعد خارج الإنجيل ...

وواضح بداهة أن التوراة والإنجيل هما الأصل فى رواية هذا الميلاد المعجزى ــ فالتوراة هى التى تنبأت عن هذا الميلاد العجيب والإنجيل هو الذى قام بإثبات تحقيق ما تنبأت به التوراة عنه وإعلان حقيقته للعالم بعد أن تمت حتى أنه أضحى متعذراً على أى شخص يتأمل هذه الحقيقة بإخلاص أن ينكرها أو يكذبها . ولم يكن فى ما ذكر بعد ذلك فيما بعد سوى تصديق لما سبق أن ذكرته التوراة والإنجيل ، والفضل دائما للمتقدم !

وأما من جهة الادعاء على كتبة الأناجيل بأنهم قد تعمدوا إغفال ذكر هذا الميلاد العذراوى مخافة السخرية والتهكم أو مخافة الظن والشكوك فهو أمر لا أساس له من الصحة لأن عدم إشارة كاتب ما من كتبة العهد الجديد إلى هذا الميلاد العذراوى ليس فى حد ذاته برهانا على جهله بهذا الميلاد ، وأيضا عدم ورود إشارات كافية عنه لا يجب أن يؤخذ على علاته كشىء مطلق **لأن حكمة الاكتفاء بتسجيله مرة أو مرتين تثبت أن لا داعى للتكرار وخاصة وأن هذا الميلاد العذراوى لم يكن من الأخبار العادية التى يجوز إذاعتها ووضعها أمام العامة إذ أن ذلك من شأنه حينئذ أن يخدش شرف العذراء بلا مبرر وهذا ما ظهر فى التلمود وكذلك فى موقف اليهود من مريم وإبنها برغم عدم الإعلان العام عن هذا الميلاد المعجزى فى البداية** . كل المطلوب هنا إذاً أن لا يكون بين كتاب العهد

الجديد من يناقض هذا الميلاد العذراوى الأمر الذى لم يحدث قط بل على العكس فأنه بالإضافة إلى التصريحات العديدة المثبتة له قد وجدنا من التلميحات ما يجعل الاهتمام بهذه الدائرة القدسية غير مقيد أو واقف عند حد ...

فمثلاً يفتتح مرقس إنجيله بالقول : « بدء إنجيل يسوع المسيح ابن الله » دون أن يتعرض لطفولة الرب يسوع وبالتالى لذكر شيء عن كيفية ميلاده فماذا يكون معنى هذا الاغفال ؟ أهو تشكك فى حقيقة الميلاد العذراوى من جانبه ؟ **حاشا ، فإنه فى الواقع قد عاد فأكده بقوله عن المسيح : « أليس هذا هو النجار ابن مريم » (ص ٦:٧) فلماذا يصفه هنا هكذا ؟ لا شك أنه إثبات منه لحقيقة هذا الميلاد العذراوى نراه يتجنب أى كلام يفهم منه أن المسيح كان ابنا ليوسف ومن هنا نسبه إلى مريم ودعاه « ابن مريم » !**

وأما الرسول يوحنا الحبيب فلم يكتب عن هذا الميلاد العذراوى لأن الإيمان بهذا الميلاد كان راسخاً وقت كتابته لإنجيله **وفضلاً عن ذلك فإنه كان مهتماً فيما كتب عن المسيح بالناحية اللاهوتية التى جعلته يتخطى هذه الحادثة ومتعلقاتها ويذهب إلى أعماق الأزل السحيق ليحدثنا منه عن أصل المسيح كالكلمة** الذى كان عند الله بلا بدء كما أنه فى حديثه عن ولادة المؤمنين وكيف أنها ليست من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل بل من الله (ص ١:١٣) إنما كان يشير ضمنا إلى هذا الميلاد العذراوى الفريد .

أما بولس رسول المسيحية فينبغى أن نلاحظ من جهته بأنه قد اتخذ لوقا كاتب الإنجيل الثالث ـــ رفيقاً له فى رحلاته ويبدو من كتاباته الرائعة أنه كان من الراسخين فى العلم بهذا الميلاد المعجزى بدليل أن الأوصاف التى خلعها على السيد المسيح بنسبة القداسة الكاملة والبر التام إليه **لا يمكن إلا أن تكون مرتبطة تماماً بمعجزة ميلاده هذا حتى أنه قد وصف تجسد المسيح بأنه قد تم فى شبه جسد الخطية مقرراً بذلك ولادته بطريقة معجزية منعت امتداد وراثة الخطية إليه** . فهذه الأوصاف كلها ما كان ممكنا القول بها عن المسيح فيما لو كان ميلاده طبيعياً مألوفاً ، وأما عبارته المشهورة التى قال فيها : « لما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة » (غل ٤:٤) **فإن الأصل اليونانى للفظة « مولوداً » هنا يعنى « قادماً » أو « صائرا » وهى ليست مما يفيد الولادة الطبيعية !**

● معنى هذا الميلاد ودلالته :

ولكن لماذا كان لازماً أن يولد المسيح من عذراء طاهرة مقدسة تماما ! ولماذا ينفرد وجده دون سواه بهذه الولادة المعجزية لأن الحبل به فى بطن هذه العذراء كان بالعمل

المعجزى المباشر الذى أشير إليه بحلول الروح القدس وتظليل قوة العلى للعذراء عند إعلانها بهذا الحبل المقدس !

ويحدثنا مؤلف كتاب : « هل المسيح هو الله ؟! » عن معنى هذا الميلاد فيقول : « **قصد الله فى حكمته أن تتم ولادة المسيح من عذراء لكى يولد المسيح خاليا من الخطية** ــ فالبشر جميعاً يحملون فى عروقهم دم آدم الأثيم ، كان آدم هو نبع النهر الذى جاء منه البشر ومادام النبع قد تلوث بالخطية فكل قطرة جارية فى النهر قد حملت جراثيم الخطية . يقول د. ديهان أن من الحقائق العلمية الثابتة أن الدم الذى ينتج تكوين جسد الجنين يأتى عن طريق الأب فالبويضة غير المخصبة لا تنتج جنيناً ، والجنين لا يأخذ نقطة دم واحدة من دم الأم مع أنها هى التى تمده بالعناصر المغذية ... ... **ولما كان المسيح له المجد قد تجسد فى أحشاء عذراء لم تعرف رجلاً فجسده البشرى لم تجر فى عروقه نقطة دم ملوثة بالإثم وهذا هو السر فى أن دم المسيح وحده هو دم زكى كريم ومقبول للفداء** ، لذلك كان الغرض الأساسى من ولادته من عذراء فداء الإنسان » (ص ١٢٢)

ومن هنا نجد قول مؤلف كتاب « المسيح إنسان أم إله » بأن عيسى كان إنسانا ولد كما يولد الناس » ... (ص ٢٠٤) فى غير محله ، **لأنه لو كان المسيح مجرد إنسان فلماذا لم يولد كما يولد سائر البشر ؟ لماذا لم يولد بالتناسل الطبيعى كما ولد إبراهيم وموسى وإيليا وأشعياء وسائر الرسل والأنبياء ؟!** لذلك فإن جسد المسيح وإن كان قد تكون وولد كما يتكون ويولد جسد كل إنسان ــ وذلك لكى يكون شريكنا فى اللحم والدم المخلوقين ــ إلا أنه تكوين جديد بديع بفعل الأقنوم الثالث فى بطن البتول !

إن هذا الوليد العجيب الذى ولدته العذراء فى كنف يوسف وتحت اسمه وتسمى باسم « يسوع » الذى معناه « الرب مخلص » **لم يولد كما يولد سائر البشر ، ولذلك فإننا لا يمكن أن نصدق أن إنساناً بشرياً مولوداً من والدين آدميين ــ أيا كان ــ يقدر إن يكون ما كان عليه المسيح ... وأن يقول ما قاله المسيح ... وأن يعمل ما عمله المسيح فإن أعجوبة هذا الشخص الإلهى تثبت ميلاده العذراوى وتجعله محتوماً !! وهكذا يرتبط لاهوته بهذا الميلاد الفريد ويثبت بأنه لا يمكن أن يكون مجرد إنسان من جنس الناس .** يقول يسى منصور فى كتابه بيان الحق -: « لو لم يولد المسيح من عذراء لكان مجرد إنسان ، فإنه مما يليق بابن الله الأزلى فى حالة تأنسه أن يولد ميلاداً عذراوياً » (جـ ٢ ص ١٢٤) .

ويقول صاحب كتاب ــ الميلاد من عذراء ــ: « لم يكن من الممكن أن يولد المسيح من عذراء لو لم يكن إلهاً ولذا فإن ميلاده العذراوى هذا ليس فقط واجب التصديق والإحترام بل أننا نجده ضرورة لازمة للتجسد المنزه عن الخطيئة فهذا الميلاد العذراوى ليس مجرد مغايرة لمجرى الطبيعة وذلك لأنه إذا ما كان للمسيح أب وأم بشريان فإنه لا يمكن أن يكون بلا خطيئة ، وإذا كان مجرداً من كليهما فإنه لا يمكن أن يكون إنساناً **ومن ثم فإن خلو المسيح من الخطيئة بولادته من عذراء طاهرة بدون رجل أمر يثبت لاهوته كما أن ميلاده من هذه العذراء البشرية أمر يحقق ناسوته والأمران يتحدان معاً ليظهران أنه لا بد أن يكون المسيح إلهاً وإنساناً فى وقت واحد** ، فهذا الميلاد الفائق الطبيعة كان الطريقة الوحيدة التى بها صار الإله إنسانا دون أن يتوقف عن أن يكون الإله بعينه !

ومن المعلوم أنه لا يوجد بين البشر أحد سواه يشاركه فى هذا الميلاد العذراوى الذى حدث مرة واحدة فى التاريخ لم يكن لها سابق ولا تكرار لاحق وذلك فإن الإدعاء الذى أورده المؤلف عن كتاب « المسيح عيسى ابن مريم » بأن يوحنا المعمدان وقد مات شهيداً فإن دمه دم زكى يكفر عن خطيئة آدم (ص ٦٤) لا يقوم على أساس ــ لأن يوحنا لم يولد مثل المسيح من عذراء و لم يكن إلهاً يتشابه معه على الإطلاق بل هو الذى قال عنه لست بمستحق أن أحل سيور حذائه ولا أن أحمل حذاءه وبأنه ينبغى أن ذاك « أى المسيح » يزيد وأنه هو « أى يوحنا » ينقص . واعترف به جهرة أمام الملأ بأن هذا هو حمل الله الذى يرفع خطية العالم !!

ومن المعلوم أن الذى جعل موت المسيح ممكنا هو « جسم بشريته » فإن لم يكن المسيح قد تجسد فإنه ما كان يستطيع أن يموت ، وإن لم يكن قد ولد من عذراء فإن موته ما كان يجدى نفعاً إذ يكون فى هذه الحالة وارثا مثلنا للخطية فلا يكون ممكناً له حينئذ أن يتقدم لينوب عنا فى الكفارة والفداء !! ومن ثم فقد قضى الله بأن يهيىء لابنه يسوع المسيح جسداً بشرياً طاهراً مهيئاً بطريقة جديدة تتوقف عليها الفداء (عب ١٠:٥) لأن الأثيم لا يمكنه أن يكفر عن أثيم مثله وبالأولى هو فى إحتياج إلى من يكفر عنه ولذلك فإننا نعتقد بأنه لم لو يكن المسيح كاملاً بلا خطيئة ــ وحده دون سواه بلا نظير فى ذلك من البشر أياً كانوا ــ لما قبلت كفارته عنا ولما كان لنا انجيلا على الاطلاق !!

• تفرد هذ الميلاد كمعجزة لا مثيل لها :

بالرجوع إلى نبوة التوراة نجدها تتحدث هنا عن معجزة تتجلى فيها العظمة الإلهية ومن

المحقق أنها لم تحدث إلا فى عمانوئيل ، لأنه لم يكن ليليق بجلال قدس الله أن يدخل إلى العالم بغير هذه الطريقة .

وأداة التعريف هنا فى اللغة العبرية بقول النبوة : « هوذا العذراء » . تدل على شخص مشهور واجب المعرفة ــ فمن هى يا ترى هذه العذراء ؟ إنها تلك التى تنبأ عنها موسى فى تكوين ٣:١٥ وتحدث عن نسلها بوصفه « نسل المرأة » ، ومع أن النسل لا ينسب عادة إلى المرأة بل إلى الرجل لكن هذه العبارة قد نسبته إلى المرأة ، ومن ثم فلم يكن هناك مفر من التسليم بهذا الميلاد العذراوى الذى كان بطريقة خارقة للطبيعة ــ إن نفس هذا الوعد القديم « نسل المرأة » هو سر وجود عقيدة الميلاد العذراوى وانتشارها عند البابليين وغيرهم من الشعوب القديمة ولكن شتان ما بين الاسطورة والحقيقة !

وبما أن هذا المولود سيسحق الشيطان ، فلا بد إذاً أن يكون حائزا على قوة خارقة للطبيعة ، وبالتالى يجب أن يكون شخصاً إلهياً ، فمن المحتم والحالة هذه أن يولد من امرأة طاهرة عفيفة ، ولا بد من أن تكون هذه المرأة عذراء ــ هذا إذا أصل الاعتقاد بميلاد طفل من عذراء ليكون مخلصا للبشرية جمعاء (كتاب مسيا ص ٧١) .

فالكلمة « عذراء » إذاً بأداة التعريف تعنى « **العذراء** » **أم المخلص الذى هو « عمانوئيل » وتفسيره « الله معنا » أى أن هذا الطفل الذى سيولد سيكون هو بالذات : « الله ظاهرا فى الجسد »!!**

فهذه النبوة إذاً عن العذراء تتضمن وصفاً مسهباً لذلك الوعد القديم الذى وعد به الله الجنس البشرى فى سفر التكوين والذى يبين منذ البداية أن الخلاص لن يكون إلا عن طريق فرد هو « نسل المرأة » فهو الذى سيسحق الشيطان عدو البشر وبدون ذلك لا يمكن أن تحل البركة على العالم !!

ومن ثم فقد اتخذت المسيحية منذ البداءة من هذا الميلاد العجيب برهاناً على لاهوت المسيح ، وهى فى ذلك لم تنحرف عن جادة الصواب فإن الذى يولد على غير الطبيعة والمألوف لا يمكن الا أن يكون شخصا خارجا عن دائرة البشر ...

ويتصدى مؤلف كتاب « المسيح إنسان أم إله » لهذه الحقيقة بعد أن دار حولها وحار فيها بقوله بأنه رغم إعجاز هذا الميلاد وأهميته فأنه لا يقاس بشىء فى جانب القدرة الإلهية ولا يرفع عيسى عن مرتبة الآدميين ، ذلك أن خلق عيسى من أنثى دون ذكر إنما هو أتمام لدورة القدرة الإلهية فى خلق الإنسان : فالإنسان الأول آدم خلق من العدم دون ذكر

ولا أنثى ، وحواء خلقت من ذكر دون أنثى ، والإنسان العادى من ذكر وأنثى ، ثم تمت دورة القدرة الإلهية بخلق عيسى من أنثى دون ذكر ، وهذه هى صور ميلاد البشر وكل صورة منها تناظر الأخرى فى الدلالة على قدرة الخالق العظيم ليس منها ما هو هين وما هو صعب فى جانب الله ... بل إنه ليعتبر بان خلق الإنسان العادى من ذكر وأنثى لا يقل عظمة عن « باقى معجزات الخلق » ، ويعقد بعد ذلك المقارنات فى عمليات الخلق هذه فيما بين عيسى وآدم وحواء وكيف أن خلق آدم رجلاً كاملاً من التراب فى لحظة دون ذكر ولا أنثى وخلق حواء امرأة كاملة التكوين من ذكر دون أنثى ــ مصوراً هنا أن عملية خلقها تتم بالحمل والولادة ، وليس فى تكوين الرجل ذلك مستنتجاً بأنه ليس هناك فرق بالنسبة للقدرة الإلهية على حد قوله ، ثم يختتم هذا كله بالقول : « فإذا كان عيسى الإنسان قد صار ابن الله لولادته من آدم دون أب فآدم الانسان الذى وجد دون أب ولا أم يكون هو الله نفسه ... » ويالها من خاتمة غنية عن التعليق !! (ص ١٨٤ ــ١٨٧)

واذا أثبتنا أقواله آنفة الذكر **فإننا نقول رداً عليها بأن خلق آدم من غير أب ولا أم إنما هو أمر لا بد منه لأنه كان بدء الخليقة البشرية ولم يكن هناك أب ولا أم يولد منهما آدم ولذلك كان أمراً طبيعياً أن يخلق الله آدم أول إنسان من غير أب ولا أم إذ هو الأب الأول للبشر وكان لا بد أن تخلق حواء من أحد أضلاعه امرأة كاملة النمو والنضج مثله لا لمجرد إثبات القدرة الإلهية لأن هذه قد ثبتت بخلق آدم من العدم والتراب بل لإثبات الوحدة الكائنة بين الرجل والمرأة وأنهما معاً يتكون منهما الإنسان** . ولذلك لما أراد تعالى أن يخلق حواء لم يأخذ طيناً آخر من الأرض ويصنع منه حواء وإنما صنعها من أحد اضلاع آدم وظهر بذلك قصد الله فى هذا الشأن وهو أن يبدأ بهما ــ كما فى سائر المخلوقات الحية ــ ناموس التوالد العام بالوراثة :

وإذا لم يكن هناك ما يماثل هذه الحالة الأولى التى كان لا بد منها لإيجاد أصل الأنواع البشرية وغيرها على السواء ، ولكن الخالق العزيز الحكيم بعدئذ قد وضع قانوناً عاماً للتكاثر والتوالد وأصبح نطاق هذا القانون هو الإظهار الطبيعى لمجال القدرة الإلهية ، ولذلك بعد أن خلق الله حواء من آدم صار آدم وحواء يلدان بالتلقيح وهنا تقدس ناموس التوالد وأصبح إجتماع الذكر والأنثى ناموساً ثابتاً يسرى على البشر عموماً والحيوانات والطيور ــ **ولم يخترق هذا الناموس الطبيعى للتوالد إلا فى حالة المسيح حيث تغير مجرى الطبيعة فما الداعى لذلك** ؟ أن الله لا يعرف العبث بل يعمل كل شىء بحكمة فائقة لا سيما إذا كان فى عمله هذا خرق لنواميس وضعها وقدسها وسار عليها نظام العالم وسيسير إلى نهاية

الزمان ! إن الأمر واضح وهو أن الطبيعة البشرية قد فسدت بفساد آدم وخطيته و لم تعد تصلح لأن تتحد بلاهوت ابن الله ، لذلك ارسل الله روحه القدوس وحل على مريم عوضاً عن الزرع البشرى وهيأ منها جسداً يصلح أن يكون مظهراً لابن الله الوحيد ، **وإلا فلماذا لم يولد نبى من الأنبياء على هذه الصورة أيا كان هذا النبى وأيا كانت المنزلة التى تنسب إليه !!**

وعلى أى حال فإن فى هذه النسبة إلى الله تعالى الواردة فى مصادر أخرى ما يقرب الأمر المذكور هنا أى ولادة المسيح المعجزية بروح الله إلى ما سبق للتوراة والإنجيل أن أعلناه !!

ويقول الشيخ الجيلى فى كتابه « الإنسان الكامل » : إن النصارى عبدوا الله تعالى فى عيسى ثم قالوا بعدم التجزئة ثم قالوا بقدمه على وجوده فى محدث عيسى وكل هذا تنزيه فى تشبيه لائق بالجناب الإلهى ، فهل هناك أبلغ من هذه الشهادة الإضافية فى الإعتراف بموقف النصارى من مسيحهم الذى أثبت ميلاده العذراوى حلول اللاهوت فى الناسوت حلولاً جوهرياً ، ولا غرابة فى استتاره إياه بإجتيازه المراحل الإنسانية بأدوارها **لأن إرتباطه بالإنسانية إنما كان لا بد أن يكون كاملاً ووفقاً لنظامها العام الذى درجت عليه وإلا لاستحال وجوده بين البشر إنساناً حقيقياً** وهكذا جمع فى هذا الميلاد العذراوى **ما هو فائق للطبيعة بحدوثه بدون زرع بشرى مما يليق بلاهوته ، مع ما هو طبيعى فيما يختص بأدوار التكوين والنمو الخاصة به كإنسان تام وهذا مما يليق بناسوته !** وهذا فى حد ذاته يفوق فى العظمة والجلال ما كان من فعل للقدرة الإلهية فى خلق آدم وحواء بل والخليقة الأولى بأسرها ... وعن ذلك يقول « وابرن » مؤسس جامعة بوسطن وأحد علماء الكتاب المقدس فى كتابه « التظليل الإلهى » : « ذاك الغير مولود من زرع بشر ومنزه عن الخطأ !! حقا إنها خلقة جديدة لم يسبق لها مثيل ! خلقة تفوق كثيرا تلك التى حدثت حينما ظللت قوة العلى فى البدء وجه المياه وأمرت فكان النور وكانت الحياة » (مقتبس فى كتاب التجسد المنزه عن الخطأ ص ١٣)

• ترجيح دوام بتولية العذراء بسبب هذا الميلاد :

يبدو عند التأمل النزيه بأن الإعتقاد « بالميلاد العذراوى » أمر لا قيمة له بدون ربطه « بالتجسد الإلهى » هذا الربط الذى دفع جلاله ورهبته الكاثوليك إلى التطرف الذى حدا بهم لإعلان عقيدة الحبل بلا دنس لمريم العذراء نفسها رغم تعارضه مع قولها فى تسبحتها الخالدة : « تبتهج روحى بالله مخلصى » مشتركة بذلك مع البشر فى حاجتهم للخلاص .

ويبدو من الجهة الأخرى أن البعض قد امتنعوا عن إعطاء العذراء مكانها اللائق بها خشية رفعها إلى مرتبة الآلهة والتعبد لها ... ولكن مثل هذا الموقف المتناقض لا يجب أن يكون مانعاً من إعطائها مكانتها التى تستحقها ، **فإن فى إختيار الله لها لتكون والدة ابنه « الكلمة الأزلى » شرف يرفعها إلى مكانة لا يمكن لكائن بشرى آخر أن يحتلها** ... هذا لا يعنى أن مريم زادت عن كونها بشر فإنها مثلهم بعيدة عن الإلوهية . بنفس الهوة الساحقة التى تفصل ما بين الله وبيننا ، ولكنها مع ذلك « المباركة بين النساء » **وفى تسبحتها الخالدة قد أخبرت بأن جميع الأجيال ستطوبها أى تدعوها « المباركة »** لأنه بينما لم يكن ممكناً لسوى المسيح أن يفتح لنا أبواب الفردوس فإنها بخضوعها لإرادة الله فى سر التجسد قد فتحت له أبواب الارض بأسرها .. **وقد حصلت بذلك على مكانة سامية بين القديسين بأجمعهم** ، ومع أنها تباعدت عن أى مركز رسمى فى الكنيسة ولم تدعى لنفسها ألوهية بسبب طبيعة إبنها الإله ، **لكنها مع ذلك تبقى « المباركة بين النساء » وذلك الى الأبد** بل أن الوصف الذى خلعه عليها القدماء بقولهم عنها « أم النور » و « والدة الاله » لا ضير فيه لأن ذاك الذى سمح لنفسه بأن يولد من جسدها كإنسان حقيقى إنما كان إله حقيقى كذلك وهو بعينه النور الحقيقى منذ ولادته منها « الاله المتأنس » الى الأبد !! (كتاب أسس الإيمان جـ٢ فصل الميلاد العذراوى ص ١٢٨) ولذلك قضى أول حرمان من حرومات كيرلس الكبير بأن « كل » من لا يعترف أن عمانوئيل إله حقيقى **فليكن محروماً ويتمسك التقليد الجامع أى المتفق عليه منذ العصور القديمة ، ببقاء مريم عذراء وعدم ولادة أولاد منها غير يسوع حتى يصفونها « بالدائمة البتولية » وذلك إقراراً منهم بما يحيط بسر التجسد من هيبة ووقار يليقان به** ، وبالرغم من أن بعض المفسرين يميلون إلى الصمت دون الخوض فى هذه البتولية الدائمة وعدم القطع فى شأنها برأى إلا أن تساؤل القدماء بقولهم عنها : « **أفلا يكون من الأرجح أن التى ولدت « المسيح الإله » لا تلد سواه » يجعل كفة البتولية الدائمة هى الراجحة** ويردد صدى ذلك القديس ابيفانوس بسؤال يقدمه فى هذا الصدد ويقول فيه : « أين وفى أى عصر ، وجد إنسان فيما بين المسيحيين قد نطق باسم مريم دون أن يتبعه حالاً بلقب العذراء أو البتول ؟ » ... ولا يفيد القول ، « بأن يوسف لم يعرفها حتى ولدت إبنها البكر » (متى ١ : ٢٥) بأنه عرفها فيما بعد وعاشا فى وضع مختلف عما كان الحال عليه قبل ولادة المسيح ، فقد ترجمت لفظة « حتى »الواردة هنا بلفظة « إلى » فى مواضع أخرى ، ومع أن كلمة « حتى » تعنى لغوياً الغاية لأمد معيَّن ، ولكن القصد منها أحياناً إستمرار الحالة التى قبلها ، لتستمر أيضاً بعدها إلى ما لا نهاية ... « فقد قيل مثلاً عن ميكال زوجة داود أنها لم تلد حتى ماتت

.. » ويستفاد من هذا أنها لم تلد فى حياتها على الأرض وهكذا بعد الموت لم تلد أبداً .. وبقيت عاقراً بصفة مستديمة **وبذلك يكون قصد الوحى هنا أن السيدة العذراء كانت بتولاً عند ولادة المسيح ، دون أن يقصد بذلك ما يساور المتشككين فى دوام بتولية العذراء** : وأما لفظة « البكر » فإنها لا تقرر بأنه كان لمريم أولاد من يوسف بعد المسيح لأنه كما يقول ليتفوت : « أن الناموس وهو يتكلم عن البكر لم ينظر إلى إعتباره هكذا بالنسبة لمن يولدون بعده وهل يوجدون أم لا ، وإنما ينظر فقط إلى كونه المولود الأول الذى لم يسبقه أحد قبله » .

وإذاً لم يقصد من لفظة البكورية ليسوع أن مريم ولدت خلافه ، بل يقصد أنه قد تمت فيه النبوة القائلة ــ بأنه قدوس الرب وهى الواردة فى الناموس ــ أن كل فاتح رحم (بكر) يدعى قدوسا للرب (خر ١٣:٢ و لوقا ٢٣:٢) وليم القول : متى أدخل البكر إلى العالم يقول ولتسجد له كل ملائكة الله (عب ٦:١) كما إننا لا نستطيع أن نجعلها قاعدة بأن كل من بكرت لا بد أن تثنى ؟!

ولايعنينا هنا ما عاد هذا المؤلف يتهكم به على هذا الميلاد العذراوى بقوله : « لو تصورت مريم أو زوجها وأقاربها أن فى عيسى شيئا ينأى به عن مرتبة البشر لما عادت وزوجها الإتصال ببعضهما لإنجاب المزيد من الأبناء والبنات أخوة عيسى ، ولنفرت من زوجها يوسف ولترفعت عنه **فهى أم إله وليست أم إنسان ، وأم الإله لا تلد الأناسى ولا تعاشر الرجال ولا تنجب الأطفال** ، ولكن مريم الإنسانة أم عيسى الإنسان عاودت الحمل والولادة من زوجها يوسف وأنجبت له بنين وبنات (ص ٤١) ولسنا ندرى من أين جاء هذا الكاتب بهذا التأكيد القاطع فى أمر لا يمكن الجزم فيه بمثل هذه السهولة المتناهية ، **ولكنه على أى حال قد كشف النقاب عن الحقيقة وهو يحاول إنكارها ، فإننا نراه مؤكداً ــ وخاصة فى ضوء أقواله المثيرة هذه ــ أن يكون من الطبيعى بالنسبة لمريم أن تكرس نفسها فعلاً لبتولية دائمة بعد أن ولدت الإله مخلص العالم** ، وهذا القول الذى فعلته أكثر اتفاقاً من الرأى الذى ذهب إليه صاحبه فيما سلف ذكره وإلا فكيف يكون الله طهر مريم واصطفاها على نساء العالمين »

ومن عجب أن صاحب الرأى المخالف يعتبر التقول على مريم فى درجة مساوية للكفر فهو بهتان وكذب يستحق فاعله عذاب الجحيم (٢٩)

ولقد اختلف الرأى فيما قيل بشأن أخوة المسيح المشار إليهم فى الأناجيل والرسائل

وهل هم أخوة أشقاء له من أمه أم أخوة غير أشقاء من أم أخرى سبق ليوسف أن تزوجها قبلاً أم أنهم بحسب الطريقة الشائعة بين اليهود حينئذ ــ والتى لا يزال صداها فى بعض الأوساط إلى اليوم ــ أعتبروا أخوته وهم فى الواقع أبناء خالته !؟ ويعزز الرأى الأخير أن يوحنا الحبيب كان الشخص الذى ائتمنه المسيح على « مريم » أمه عند الصليب بقوله له « هوذا أمك » فأخذها إلى خاصته (يوحنا١٩) وهذا العمل من جانبه لا يبدو فى محله فيما لو كان ليسوع إخوة أشقاء من أمه مريم العذراء !! فلا الكتاب المقدس ، ولا التاريخ الكنسى ، ولا المنطق السليم يستسيغ مثل هذا الإعتقاد أو يؤيده . **بل أنه ما أجَل أن يكون يسوع ــ الابن الوحيد لأمه على الأرض ، كما أنه الابن الوحيد لأبيه فى السماء !**

إننا نعلم أن يوسف قد اختفى من القصة سريعاً والكاتب نفسه يقرر بأن وفاة يوسف حدثت عندما بلغ عيسى الثامنة عشرة من عمره (ص ٤٠) ولو أنه لا يستند فى تحديد ما سلف ذكره إلى مصدر ما ولكنه يؤكد لنا به إنتهاء حياة يوسف بالوفاة : ومما يذكره الأنجيل عمن يشير إليهم بأنهم « أخوة المسيح » نرى أنهم لم يكونوا قد أتوا بعده وأصغر منه سنا وإلا فإنهم كانوا يقبلون زعامته **وهذا أمر معقول لأن الإنجيل يسجل عليهم بأنهم لم يكونوا يؤمنون به فى البداية مما يبدو معه واضحاً أنهم كانوا أكبر منه سنا وليسوا أخوة له بالميلاد من العذراء !!** ونعلم من نصوص الكتاب أن هؤلاء المدعوين « أخوة للمسيح » لم يرد ذكرهم أو الأشارة إليهم فى طفولة يسوع ولا فى صبوته ولا فى المدة التى كان فيها يوسف النجار على قيد الحياة بل لم يرد الحديث عنهم إلا بعد دخول السيد المسيح فى خدمته الجهارية فى الوقت الذى فيه كانت حياة يوسف النجار قد انتهت ! وكان ضمن ما ورد بها اسم « يعقوب » من أخوة الرب كرسول وواضح أنه ليس بيعقوب ابن زبدى أخو يوحنا وهو الذى قتله هيرودس . وإذاً فالمقصود به يعقوب ابن حلفى وكان له أخ اسمه يهوذا وهو المسمى لباوس أو تداوس ويعلن عن نفسه فى فاتحة رسالته بالقول ــ « يهوذا عبد يسوع المسيح وأخو يعقوب » والمؤكد أن « حلفى » أباهما هو نفسه **كلوبا** زوج مريم أخرى هى أخت مريم العذراء ، **ومن أولادها كما ورد ببعض مواقع فى الإنجيل يعقوب ويوسى ويهوذا فهولاء الثلاثة إذا هم أولاد حلفى وهم من ضمن أخوة يسوع الأربعة المذكورين فى (متى ١٣ : ٥٥)** إذا فالمشار إليهم بأخوة يسوع أنما هم أولاد خالته مريم زوجة كلوبا (حلفى) وكان الإصطلاح شائعاً أن يدعى أبناء العم أو الخالة أخوة ... فلا غرابة إذاً فيما ورد فى الكتاب المقدس عن ذكره أخوة ليسوع بحسب ما كان مصطلحا عليه فى ذلك الوقت بين الناس .

وهكذا يتحقق لنا من « الميلاد العذراوى » الذى ينفرد به « المخلص الإلهى » وهو ما يليق به وحده فى قدومه إلى العالم وظهوره بين البشر ما يثبت حقا ويقينا لاهوت المسيح مما يتفق مع الشعور العام والغريزى فى كل إنسان بالرغبة فى رؤية الله ولذلك كان لا بد له فى قدومه المبارك هذا من أن ينفرد بهذا الميلاد المعجزى الذى تم بحلول الروح القدس على العذراء وتظليل قوة العلى لها حتى يتطهر إناءها تطهيراً كلياً يتم به إبعاد كل أثر للخطية مما يستحيل معه تسربها إليه وهذا بعينه هو معنى الإصطفاء المنسوب لمريم ذاتها وهو ضمان القداسة المطلقة الخالية من كل دنس للمولود الذى حبل به بهذه الطريقة المعجزية والذى لذلك يصفه الملاك بقوله للعذراء فلذلك أيضاً القدوس المولود منك يدعى « ابن الله » (لوقا ١ : ٣٥) وهكذا تقدست العذراء بولادة القدوس منها !

الفصـــل الثـــالث
الكامـــل المثـــالى

« فكونوا متمثلين بالله كأولاد أحباء » (أفسس ٥ : ١)
« فإن المسيح تألم لأجلنا تاركا لنا مثالا لكى تتبعوا خطواته » (١ بط ٢ : ٢١)

● ● ●

يتقدم مؤلف كتاب « المسيح إنسان أم إله » فى الفصل الثانى منه إلى الحديث عن « شباب عيسى » ويتخذ مما هو مسجل فى الإنجيل عن بشريته تكأة لوصفه كمجرد إنسان فيقول عنه : « ولد عيسى طفلاً كسائر الأطفال » (ص ٣٦) وحين أصبح عيسى ابن ثمانية أيام ختن كما ختن سائر الأطفال » (ص ٣٧) ومع مرور الأيام والسنين أخذ جسد عيسى يكبر وأخذ عوده يشتد وعقله ينمو ... وهكذا كان يتقدم نحو الرجولة وينمو فى الحكمة والنعمة عند الله والناس (ص ٣٨) ثم يعود فيقول : عاش عيسى منذ مولده حتى بعثه فى سن الثلاثين إنساناً عادياً ... وهكذا فى سائر أطوار حياته ، وكافة مراحل نموه ، لم يحدث له طوال تلك الفترة حادث يرفعه عن مرتبة الآدميين أو يشتم منه خروجه عن فطرة البشر العاديين (ص ٤١)

ولا حجية طبعاً لمثل هذا السرد الطبيعى أن كان يقصد به الإعتراض على « لاهوت المسيح » فإن ما قيل عنه مما ينطبق على ناسوته لا يفيد أنه ليس إلها لأن المسيح إذ هو « الإله المتأنس » يصح عليه أقوال متضادة حسب الظاهر منها ما يدل على أنه إنسان وهى لا تنفى كونه إلهاً ، ومنها ما يدل على أنه إله وهذه لا تنفى كونه إنساناً أيضاً .
وإذن فالأوصاف التى قيلت عنه كإنسان لا تنفى لاهوته وكونه إله . فإن حياته له المجد كانت إنسانية من سائر الوجوه كما أنها كانت إلهية ، فقد كان إنساناً حقيقياً بعواطفه وإحساساته حتى أنه قد ولد فى العالم كأحد سكانه ولم يتجنب أى شرط من شروط الإنسانية ولم يطرح عنه قانونها العام ، وإنما تميز عن بقية البشر بلاهوته !

ويشهد لهذه الحقيقة العقاد فى كتابه « الله » صفحة ١٥٩ بقوله :
« **فجاءه (أى إلى العالم) السيد المسيح بصورة جميلة للذات الإلهية** » ومعنى ذلك أنه قد ظهرت فى المسيح الصفات الإلهية فى الصورة الإنسانية التى إتخذها ولقد بهرت شخصية المسيح الفريدة مؤلف كتاب « هما على الطريق » فألزمته بأن يقول : **أن القوة الخارقة التى ظهرت فى المسيح كانت قوة نابعة من ذاته** لأن ذاته لم تكن مثل ذواتنا بل كانت مؤهلة لعظائم الأمور معبأة بطاقات فريدة هائلة » وهاتان شهادتان نادرتان مقدمتان للمسيح من خارج المسيحية ! وأما بسكال الفيلسوف المسيحى فيشهد لنفس الحقيقة بقوله : « عرفت المسيحية إحتياجات الإنسان واستجابت لمطالبه **وأوجدت حلاً لجميع مشاكله . وكان ذلك الحل هو إتحاد الله الفعلى فى أكمل معانى الإنسانية ، إتحاد الله بإنسان خال من الخطيئة** ولغاية واحدة هى فداء الإنسانية جمعاء ولنتيجة واحدة هى الخلاص من الخطيئة والشقاء والموت !

أما لماذا أخفى لاهوته بينما كان ناسوته يتدرج فى الأدوار الإنسانية المعهودة فهذا يرجع إلى حقيقة إخلائه لنفسه أى حجبة للاهوت إختياريا ومن ثم فأنه قد أخفى ألوهيته لأنها لو كانت عرفت فى بادىء الأمر لهالت كل إنسان وتعذر معاملته كصبى صغير ولذهب هباء قصد التجسد الذى انطوى على أن يكون المسيح إنساناً كاملاً ينمو ناسوته نمواً طبيعياً ...

أما عن ظاهرة النمو نفسها فيقول القديس يوحنا الدمشقى : أن المسيح إذ قيل أنه كان يتقدم فى الحكمة والقامة والنعمة فذلك لأنه كان يتقدم فى القامة فعلاً وبهذا التقدم فى القامة كان يكشف فى الوقت نفسه عما هو كائن فيه من حكمة ونعمة . **ومن ثم فإن الذين يقولون أنه كان ينمو فى الحكمة والنعمة بمعنى القابلية فى التزايد فيهما ، فإنهم ينكرون أن الجسد قد اتحد بالكلمة منذ اللحظة الأولى لوجوده** (كتاب إيمانى للقس ألياس مقار ١٣٩)

ولم يقف هذا الكاتب عند حد تضييق أفق نظرته فى المسيح ليحصرها فى نطاق إنسانيته فقط بل أنه قد غالى فى تجسيم ما يرتبط بهذه الإنسانية واستغرق فيه بقصد النيل من « الكمال المثالى » الذى تميزت به حياة السيد المسيح الفريدة ، وهو فى سبيل ذلك يكتب تحت عنوان « مسرات عيسى » كيف أنه كان يستطيب صحبة النساء فيروى فى هذا

الخصوص قصة مريم المجدلية والمرأة الزانية التى مسحت قدميه بشعر رأسها والسامرية التى قابلته عند البئر وتلك التى أمسكت فى ذات الفعل وطلبوا رجمها ومرثا وأختها مريم شقيقتى لعازر ، وهو يتصور هذه العلاقات بأنها إقبال من عيسى على الحياة بكافة متعها الحلال التى خلقها الله ... (ص ٤٢ ــ ٤٥) .

ويقرر مؤلف كتاب : « مجد الرب يسوع الأدبى » فى هذا الصدد بأن المسيح وهو يجول فى الأرض قد حجب مجده الشخصى والرسمى إلا إذا أكتشفهما الإيمان أو اقتضت ظروف الأحوال إظهارها ، **وأما مجده الأدبى أى الفضائل الظاهرة بكلامه وأعماله فلم يمكن أن تحتجب لأنه كان من المستحيل أن يظهر أقل من الكمال فى كل أموره . فإن الكمال الأدبى قد لاق به بل كان هو إياه بعينه** ... فإنه هو الإنسان الوحيد الذى سلك مسلك الكمال . فالجمال إنما يحسب جمالاً إذا ظهر فى الوقت المناسب فإن له الكمال فى جميع الأحوال وإن كان الظلام البشرى لا يدرك نور مجده الشخصى والرسمى فإنما يزداد مجده الأدبى لمعانا (ص ٧ ، ٩ ، ١٤) **وواضح أنه مهما تكن الأوصاف التى من هذا القبيل فإنها بلا شك تقصر دون وصفه باعتباره « المثل الأعلى للكمال » فهو الشخص الوحيد الكامل الذى وطئت قدماه أرضنا ، كان كاملاً فى أفكاره ، كاملاً فى أقواله ، كاملاً فى أعماله ، كل أوصافه متناسبة متلائمة فلم يتطرف قط فى أمر ما ، كل صفة من صفاته ظهرت فى موضعها ، فلم تتم فيه فضيلة على حساب الأخرى ، وأن من الفضائل التى ظهرت فيه أنه كان عظيم الحنو وسهل الوصول إليه وأنه قد دنا جداً من المشقات والإحتياجات التى اقتضت حضوره ، فإن نعمته حملته على العمل الدائم للمحتاجين وذوى المذلة وقد صرف خدمته على أشخاص متنوعين فالتزم أن يخدمهم على هيئات متنوعة كمقتضى الحاجة (ص ١٦-١٨) وهو لذلك نجده يسمح بدخول المرأة الخاطئة إلى بيت سمعان الفريسى ليوبخ كبرياءه إذ كان يظن أنه لو كان يسوع نبياً أو باراً لما سمح للخطاة أن يدنو منه** (ص ٢٠) وفى حضوره فى بيت عنيا نراه كصديق لعائلة مرثا ومريم وأخيهما لعازر وكانت هذه العائلة ترحب بحضوره حينما يشاء ومع ذلك نراه لم يكن معتاداً أن يتداخل فى الأمور المتعلقة بهم إلا إذا تجاوز أحدهم مكانه نراه حالاً يتخذ مقامه الخاص لإصلاح أمورهم شخصياً حين اقتضت الحاجة إلى ذلك كما فعل مع مرثا (ص ٢٦) أما موقفه من المجدلية والسامرية وتلك المرأة الزانية التى طالبوه برجمها **فإننا حقاً ما رأينا أحداً غيره رءوفاً وحنوناً على البائسين إلى هذا المقدار ولا واحد قد تنازل مثله إلى الخطاة** (ص ٢٧) ولم يكن فى محبته ملاسة أو نعومة بل كانت خالصة خالية من الأغراض (ص ٣٧) وهكذا كان الأمر معه لما بلغ نعمته إلى تلك المرأة السامرية

وأتى بها إلى التوبة فكان كالراعى الذى قد وجد واحداً من خرافه الضالة وحمله على أكتافه إلى الحظيرة (ص ٦٤) وأما الاقتباس الذى يذكره الكاتب الحديث عن « المجدلية » نقلاً عما جاء فى كتاب « يسوع ابن الإنسان » فإنه يخفى فيه جانباً هاماً منه قد أورده مؤلف كتاب : « هل المسيح هو الله » فى ص ٣ ونصه : « **اننى أحب فيك روحك التى لا يراها الآخرون** » **وقد أورده هذا الكاتب بطريقة مختلفة بقوله : أنا وحدى أحب فيك ما لا يراه سواى** » **فعل ذلك ليخفى الحب الروحانى النابع من الألوهية** ، ذلك الحب الذى ظهر فى المسيح بجذب النفوس إليه ليشبعها بما هو أمجد وأسمى من أية لذة عابرة بما أعده لها فى الخلود السعيد !

وجدير بالذكر هنا أن المسيح فى جذبه لمن يشير إليهم هذا الكاتب لم يكن يستطيب صحبة النساء كما أدعى عليه ، وإنما وهو مخلص البشرية : أى كل من الرجل والمرأة كان يبحث عن كليهما **وكم سطر الإنجيل حوادث لتعامله وجذبه لرجال من كل الطبقات والأصناف فلم يكن بغريب أن يسطر كذلك هذه اللمحات النورانية التى ظهرت فى تعامله مع النساء** ورفعهن من حضيض الذل وظلم الرجال وخاصة وأنهن مكمن غواية الشيطان ، وقد أثبت بذلك أنه كانت فيه قوة عجيبة لجذب قلوب الناس إليه **ولم تزل هذه القوة فيه سارية المفعول فى كل من يدخل نطاق محيطها رجلاً كان أم إمرأة على حد سواء ... !**

وإذ نعود إلى أقوال مؤلف كتاب « المسيح إنسان أم إله » التالية التى فيها يشير إلى أقوال بعضهم بأن المسيح امتنع ونصح تلاميذه بالإمتناع عن الزواج المشروع وإلى أن البعض يعتقد فى أن مرجع ذلك إنما هو إلى نقص فى رجولته أو عيب فى تكوينه ، لكنه يؤكد بأن هذا غير صحيح فى حق عيسى الإنسان السوى الكامل الطبيعى فى كل شىء ومن ثم نجده يتقدم للدفاع عنه من هذا الوجه فيزعم بأنه لم يتزوج لقصر عمره وعدم فراغه من إتمام رسالته وأنه لولا ذلك لتزوج بزوجة وزوجات وأبعد عن نفسه فتنة الشك فى رجولته أو الأفتراء بشذوذه ... » (ص ٤٧) .

ويحلو له بعدئذ أن يعقد مقارنة بين يحيى وعيسى (أى المعمدان ويسوع) وتقشف الأول وزهده وإنطلاق الثانى وتحرره وما ينسبه للمسيح من أنه كان محباً للضحك والمرح وحضور الولائم والأفراح والطرب لسماع الأغانى والموسيقى ومشاركة الناس أنواع اللهو ومن ثم فإنه يعتبر هذه الحياة الواقعية التى يتصورها فى عيسى بأنها مخالفة تماماً للتعاليم الجامدة التى نسبت إليه ودعت إلى ترك الدنيا والتنسك والزهد (ص ٥٠) **وجوابنا على هذا**

الكلام السطحى أن فى يسوع قد ظهرت قدرة فائقة ضبطت الغرائز وإلا لما اختلف عن سائر البشر ومن ثم فإن الغرائز لم تنحرف فيه كما فى سائر البشر ... وأهم الغرائز هى الجنسية والذاتية والاجتماعية ، وقد يتحول نشاط الإنسان من الغريزتين الجنسية والاجتماعية إلى الذاتية ومن هذا النوع الذين يهجرون العالم ويختفون فى الصوامع زهداً منهم فيه . ومعظم الناس بفعل الوراثة وإيحاء البيئة يحولون جزءاً من نشاط غرائزهم إلى إتجاه واحد فيعيشون إما لذواتهم وإما لإشباع غريزتهم الجنسية وإما للجماعة ، وتصبح إحدى هذه الثلاث غرائز الغرض الغالب فى حياتهم . ولما كانت الغريزة الجنسية والذاتية لهما من قوة المقاومة تحو الغريزة الاجتماعية وتمتنعان عن أن تحولا جزءاً من نشاطهما إليها كان لا بد للإنسان الذى يخدم المجتمع أن تكون لديه قوة فوق الطبيعة تلازمه ليلاً ونهاراً بلا انقطاع تساعده على ترتيب نفسه **وما ذلك إلا لأن الغريزة الاجتماعية ليست غالبة فينا كالجنسية والذاتية** . ومع ذلك فيسوع بالقوة الفائقة الطبيعة ليس فقط أمكنه أن يخدم المجتمع بدافع محبته للآخرين بل لقد استطاع أن يكون إله المحبة على الأرض حتى يبذل نفسه عن المجتمع الخاطىء الذى أبغضه وأسلمه إلى الموت على خشبة الصليب والعار وهناك أظهر فرط محبته عندما صلى لأجل الذين صلبوه وأهانوه !

فتلك قوة فائقة هى التى وجهت نشاط الغرائز فى شخصه العجيب توجيها يتفق مع قصد الله فى خلاص البشر وإسعادهم !

كذلك فيما يتعلق بالغريزة الذاتية التى تظهر فى الرغبات الشرعية كالمكانة والنجاح لكى نكون منتجين وليس مجرد مستهلكين حتى إذا ما سلب من الإنسان شعوره وذاتيته (إحساسه بشخصيته) فإنه يصبح أقل من إنسان : **لأن هذه بواعث شرعية ولازمة طالما أنها لا تبعث على تعظيم الذات** . لذلك كان توجيه نشاط الغريزة الذاتية فى المسيح وحسن استعمالها لم يتضمن أى قمع غيرطبيعى أو ضار بالنفس **بدليل أنه لم يستعمل قمعاً ولا تقشفاً كيوحنا المعمدان مثلاً أو الذين يعذبون أجسادهم** ، بل عن طريق علمه بأهمية الفرد عند الله وأن الله عين لكل إنسان دوراً يلعبه فى خدمة الجماعة يقوم به حسب قواه المعطاة له ، وهذا أسمى إشباع تطمع فيه غريزة الذات أى حب النفس والاحتفاظ بطابع الشخصية الخاص .

أما الغريزة الجنسية فهى فى نموها الردىء شهوانية وفى حسن إستخدامها أكبر قوة خالقة فى حياة العالم فغريزة المسيح الجنسية امتد نشاطها إلى قنوات الغريزة الاجتماعية فاستخدمت لتعظيم مجد الله لفائدة الجنس البشرى . ولما كانت الأبوة كامنة فى الغريزة

الجنسية نرى السيد المسيح قد صار أب للجنس البشرى إذ امتد عطفه على الجميع لا سيما الضعفاء والمرضى والساقطين فعاملهم بالرقة والعطف والمحبة !

ولا يمكن تحويل النشاط الجنسى فى كل الناس على هذه الطريقة إلا بقوة الله التى تلازم هذا الإنسان وتحول نشاطه المذكور إلى وجهات جديدة . **وبما أن السيد المسيح لم يفعل خطية فهذا دليل على أن الله ظهر فى بشريته وحل فيها حلولاً جوهرياً يحول ويوجه هذه الغرائز الإنسانية على النحو الذى ظهر فى حياة الرب يسوع غير الخاطئة تلك الحياة الفريدة التى لم يحياها بشرى قط !!** كان جلاله باعثاً للرعب ، كما كان لطفه جاذباً للنفس ، لم تؤثر فيه الحوادث ، ولا غيرت الظروف منه شيئا ... لم يسحب كلمة قط ولا انثنى عن عزمه أبداً . فهو بخلاف كل الرجال ــ موسى أفرط بلسانه ، وبطرس أظهر حماسة وجبناً فى غير موضعهما ويوحنا أظهر تعصباً ممقوتاً وبولس نطق بكلمات أمام رئيس الكهنة اضطر أن يسحبها وذلك لأنهم كلهم عبيد وقد ظهر فيهم النقص **أما هو فإنه وحده العلم المفرد الذى لا يشبهه أحد على الإطلاق !**

فالبشر الغيور منهم عنيفاً ، والخار متعسفاً ، واللطيف مترددا ، والحازم متعصباً والحر متراخياً ، والمحسن مبذراً ... أما هو فإن فى حياته الجلال والجمال وذلك لأنها كلها اعتدال ... لم يسمع عنه أنه ضحك ، كما أنه لم يكن كئيباً ، بل كان مملوءاً بفرح مقدس (تهلل بالروح) كان صوفياً ... اجتماعياً ... سامياً ... ما اشتكى مطلقا من أن حقوقه كانت مهضومة ، وما ضجر على جهالة الناس لرسالته ولم يتهيج لسلب كرامته ولا كان حاقداً على أحد . إن أعظم الرجال ولو وصلوا إلى مصاف الأبطال يتضايقون ويفقدون توازنهم عندما تمس كرامتهم أو تصيبهم مقاومة طفيفة من صديق أو كلمة غير مأمول سماعها أما يسوع فقد كان ثابتاً فى الضيقات كما عند الفرج ، **لم يفلت منه الزمام قط !**

وهذا كله يقودنا إلى تبيان ما بين البشر والمسيح من فروق هائلة ومن ثَمّ **فإن سيرته الكاملة المفعمة بالفضائل كانت ولا تزال مثار الدهشة والحيرة بالإجماع** مما حدا بمؤلف كتاب « مجد الرب يسوع الأدبى » أن يذكر فى صفحة ٧٥ منه ما نختم به هذا الفصل ونصه كالآتى :

« فلم تتصف سيرة يسوع بالمجد الأدبى فقط بل كانت فى ذاتها عجيبة أدبيا فوصفها المدون فى الإنجيل ليس من اختراعات البشر **لأن قلما بشرياً يعجز عن رسم حياة كهذه كما أن عقلاً بشرياً لا يستطيع أن يتصورها** وفضلاً عن ذلك فإن مجرد وصفها يبرهن أن يسوع المسيح قد حضر حضوراً حقيقياً فى هذا العالم وسلك السبيل الموصوف . »

يؤيد ذلك هذه الصورة التى يقول بعض المؤرخين بأنها كتبت بقلم بسيليوس لنتيولس صديق بيلاطس الوالى الرومانى وهى من أقدم الصور التى تصف السيد المسيح وقد أثبتتها جريدة الأخبار بعددها الصادر فى ١٩٦٩/١٢/٢٦ وقد جاء فيها « أنه فى هذا الزمن ظهر رجل له قوى خارقة يسمى يسوع ، ويدعوه تلاميذه بابن الله ، وكان للرجل سمت (هيئة وشكل) نبيل وقوام ظاهر الاعتدال ، يفيض وجهه بالحنان والهيبة معا ، فيحبه من يراه ويخشاه ، شعره كلون الخمر ، منسرح غير مصقول ، ولكنه فى جانب الأذن أجعد لماع ، وجبينه صلت (بارز واضح فى سعة وبريق) ناعم ، وليس فى وجهه شيه (تمتمة أو تحسين) ، غير أنه مشرب بنضرة متوردة وسيماه كلها صدق ورحمة ، وليس فى فمه ولا أنفه ما يعاب ، وعيناه زرقاوان تلمعان ، مخيف إذا لام أو أنّب ، وديع محبب إذا دعا وعلّم ... لم يره أحد يضحك ورآه الكثيرون يبكى ، وهو طويل له يدان جميلتان مستقيمتان وكلامه متزن رصين لا يميل إلى الأطناب وملاحته فى مرآه تفوق المعهود فى أكثر الرجال »

هذه هى الصورة الحقيقية لشخصية المسيح وهى فيما لو لم تكن موجودة فعلاً لتوقف أعظم خيال دون ذلك التوفيق المطبوع فى رسمها وتصويرها ، ناهيك عن آثارها باعتبارها أصل هذا الإصلاح العظيم فى الدين والأخلاق فى أرجاء المسكونة بأسرها وذلك بشهادة الوحى والاختبار والتاريخ !!

يذكر ستانلى جونز عن ألفرد أدلر عالم النفس اليهودى أنه قدم جواباً على سؤال وجه إليه عن المسيح فحواه : « ما رأيك فى يسوع المسيح ؟ فكان الجواب : « كلما ورد اسمه على مسمعى **أقف إحتراما لأعظم شخصية فى تاريخ الإنسانية** » ... وقد أورد أيضاً فى كتابه « الطريق » قولاً لروسو فيلسوف الثورة الفرنسية وهو : « أن كان الله غير موجود ، فمن اللازم إيجاد إله كى لا يفقد الناس عقولهم ... ولكن لكى يكون هذا الإله صالحاً وجديراً بالثقة فمن اللازم أن يكون كالمسيح وإلا لما كان يدعو للشوق !! ثم يستطرد إلى القول : « **بأن يسوع المسيح هو بالضرورة الحياة الظاهرة لله** » ، فهو الذى كشف لنا صفات الله وأخبرنا بأوصافه لأنه أظهرها لنا فى إطار معالم بشريته ، فقد كانت حياته هى حياة الله نفسها مظهرة فى جسم ناسوته ، وكانت أخلاقه هى أخلاق الله معروضة على شاشة وجوده التاريخى ، ونظراً لذلك فقد قال ستانلى جونز عنه : « **بأننى عندما أنظر الى يسوع ، فإنى أستطيع أن أقول بجرأة وثقة ماذا يكون الله !** » هذا هو سر انفراده بالكمال ــ الإلهى والإنسانى معاً ــ لأن منطق تفسيره « عمانوئيل » يُلزم افتراق السيد

المسيح عن كل من سواه من الأنبياء والرسل إذ أن طبيعة الله عينها لا بد أن تكون على مثال ما ظهر فى حياة المسيح !! هذا هو « الكامل المثالى » الذى أتى الله نفسه إلينا فيه راضياً بنا ، يعاشرنا ويتوددنا بل قد اتحد بنا وصار منا ، ونحن لا نستطيع أن نخرج عنه ، ولا هو يستطيع أن يتخلى عنا فقد رفع بشريتنا معه إلى السماء !!

الفصـــل الرابـــع
القـــدوس المعصـــوم

«الذى لم يعرف خطية » (كورنثوس الثانية ٥ : ٢١)
« الذى لم يفعل خطية » (بطرس الاولى ٢ : ٢٢)
« أظهر .. وليس فيه خطية » (يوحنا الأولى ٣ : ٥)

● ● ●

من المتفق عليه أن من ضمن الأدلة على لاهوت المسيح « عصمته اللامتناهية » أى خلو حياته من الخطيئة ويعتبر ذلك معجزة من المعجزات وكيف لا وقد وقف صاحب هذه الحياة وسط المجموعة البشرية ساطع الضياء لا ظلمة فى حياته ولا لطخة شر تشوه جمالها ، ولذلك وجد فادينا الكامل متحرراً من الخطية الأصلية (الوراثية) والفعلية (الإرادية) على السواء فهو الوحيد الذى ظهر بين البشر خال من الميل والفعل الخاطئين وبرهان (كماله) هذا نجده لدى أعدائه كما عند أحبائه على السواء ... فلم يستطيع أحد أن يجد فيه علة واحدة بل شهد الجميع بأنه بار بما فى ذلك الخائن الذى أسلمه والوالى الذى حاكمه والقائد الذى كلف بالبقاء عند الصليب ... لمراقبة تنفيذ الصلب لقد كان طاهراً داخلاً وخارجاً ، فيه نرى كل الكمال والإنسجام بينما نجد فى كل شخص آخر زيادة أو نقص فى ناحية ما ...

ولهذا لم يكن للسيد المسيح شعور بالإثم ولا أحس يوما بثقل الخطيئة ولا قامت فى نفسه ذكريات مريرة ولا نزاع داخلى بخلاف البشر جميعاً على اختلاف درجاتهم وشخصياتهم ! وهذا الشعور بالإثم ينشأ عنه تعطيل قوى الإنسان والشعور بالعجز والوهن وضياع النشاط والإحساس بالعار والإحتقار وبلادة الإحساس ولا يمكن أن ذكريات الخطيئة تنتهى حتى لو غاصت فى العقل الباطن فهى سرعان ما تطفو ! هذا هو حال البشر وأما السيد المسيح فقد إنفرد وحده بالكمال المثالى ، إنه الوحيد صاحب العصمة بينهم !

ويقف على رأس الشاهدين له أعمدة المسيحية الكبار الثلاثة : بطرس وبولس ويوحنا فيشهدون بأنه ليس فيه خطية ولم يفعل خطية بل ولم يعرف خطية . لقد تسامى فوق البشر بخلو حياته من الخطأ ـــ كل خطأ أيا كان نوعه ... **وحين ناقش الشاب : لماذا تدعونني صالحاً ؟ « لم يكن يقصد أن ينفى عن نفسه الصلاح بل قصد أن يقول لذلك الشاب : « أنك لو نظرت لى كمجرد إنسان لا أختلف عن البشر فى شىء فأى صلاح يمكن أن ينسب لى حينئذ إذ ليس أحد صالح إلا واحد وهو الله فإذا أعترفت لى بالصلاح وجب عليك أن تعترف ضمنا بأنى « الإله » !!**

وأما مرجع معجزة عصمته هذه فإنما هو فى الأصل إلى الحبل المقدس به فى بطن العذراء ، فمعجزة حياة المسيح جاءت عن طريق حلول اللاهوت فى بشريته ومن ثم فأن روح الله الفائض فى قلبه كان يسلب من الإيحاءات الضارة قوتها فما كانت تستطيع أن تضر المسيح فى سنى طفولته الأولى . وقد طوبت العذراء لولادتها له وتنظيم بيئته فى الوقت المبكر حيث القابلية للتأثير : لأنه كما يقول العلامة كوديه ـــ « أن تربية الطفل تبتدىء قبل ولادته بثمانية أشهر فالأم بمجرد حبلها تعتبر مسئولة عن طفلها بما توحى إلى نفسها من تخيلات فإذا كانت تتصوره بأحلى الصور ولا سيما فى زمن الوحم فإنها تلد طفلاً متحلياً بأكثر الصفات التى أوحت بها إلى نفسها ... « **وإذا علمنا ذلك أدركنا سر حلول الروح القدس على العذراء عند الحبل به وذلك لأن مريم بشرية ومن ذاتها لا تقدر أن توحى أو تتصور صورة الكمال اللائق بهذا الطفل الكامل ، ولذلك حل عليها الروح القدس ليقدس إيحاءاتها وتصوراتها وأقوالها وحاسياتها التى كانت مزمعة أن تنطبع فى شخص يسوع الكامل** ، ولأجل ذلك اختيرت مريم بنوع خاص ممتاز فاصطفاها الله على جميع نساء العالمين ! ومن المعلوم أن مثل هذا الاصطفاء لم يحدث قط لأم أى مخلوق آخر أياً كان غير المسيح ، **فهلا يدل ذلك على أن هذا المولود من العذراء ليس مجرد إنسان وإلا فليقل لنا المتشبثون لماذا هذا الاعداد والاصطفاء** ، ولماذا حلول الروح القدس على أمه قبل الحبل ، واذا لم يكن هناك إمرأة أخرى غير مريم قد اصطفاها الله هكذا **أفلا يكون المسيح بذلك ممتازاً عن كل البشر بما فى ذلك الملوك والعظماء والرسل والأنبياء !؟** ولكن مؤلف كتاب : « المسيح إنسان أم إله » ينكر على السيد المسيح « كماله المثالى » وبالتالى « عصمته اللامتناهية » ويستطرد فى كتابه إلى القول : بأن عيسى وقد صار ابن الثلاثين قد ذهب إلى نهر الأردن حيث ابن خالته يوحنا يعمد الناس لغفران الخطايا وطلب منه أن يعمده وأن يغسل جسده فى مياه نهر الأردن ليصير أشد طهرا وصلاحاً .. (ص ٤٠) **وهو يصور طلبه هذا فى تعميده لغفران الخطايا بأن شأنه فيه شأن الآخرين ، ويقتبس**

من أنجيل غير معتمد يسميه « انجيل العبريين » بأنه ورد به « أن أم عيسى وأخوته قالوا له أن يوحنا المعمدان يوالى التعميد لغفران الخطايا فهلم بنا إليه ليعمدنا . فقال لهم أى خطيئة جنيت حتى أذهب إليه لتعميدى .. اللهم إلا أن يكون هذا القول الذى قلته .. » (ص ٥٣ و ٥٤) بل أنه فى معرض الحديث عن آيات السيد المسيح نجده يقول : بأن حساب المعجزات كان يحسب على عيسى وليس له **يضاف إلى أخطائه لا إلى حسناته** » (ص ٨٩) ولم يفته بالطبع التهكم على المعمودية المسيحية التى يقول عنها بأن الإنسان لا يصير مسيحيا بدونها بل يظل كافراً حيث لا يمكن أن يتطهر من دنس الحمل وخطيئة الميلاد ويصير مسيحياً مباركاً بدونها (ص ٥٩)

ولا شك أن الذى ذهب إليه هذا الكاتب يثير الدهشة حقا فأن الزعم بحاجة المسيح إلى معمودية يوحنا لينال المغفرة ولو عن اعتذاره المبدئ بعدم قبوله لها لعدم وجود خطيئة فيه مع الأستاذ فى ذلك إلى ما يسمى بإنجيل العبريين غير المعتمد أمر فيه العجب العجاب : فإننا وإن كنا نسلم بحاجتنا إلى المعمودية لا لمجرد الإغتسال الخارجى بل للإشتراك فى موت المسيح رمزياً دلالة على تطهرنا بدمه الكريم من دنس الخطيئة إلا أن هذا الذى ينطبق علينا لا يمكن أن يتعدانا إلى شخص المسيح القدوس ! **وإذاً لماذا جاء المسيح ليعتمد من يوحنا ؟ أكان فى حاجة إلى غسل جسده الطاهر ، ليصير أشد طهراًوصلاحاً أم لكى يستغفر عن إعتذاره بعدم ذهابه إلى هذه المعمودية لكونه لم يرتكب خطية حتى يذهب إلى يوحنا المعمدان لتعميده ، وكيف يكون شأنه حينئذ شأن الآخرين فى طلب هذا التعميد من يوحنا لغفران الخطايا ؟ ألم يرتجف يوحنا نفسه عند قدوم هذا القدوس للإعتماد منه وأقر علناً بفضله وسموه وبأنه هو محتاج أن يعتمد منه لا العكس** وشتان بين معمودية المسيح النارية بالروح القدس ومعمودية يوحنا الخارجية بالماء !!

لقد نظر يوحنا فى وجهه نظرة خارقة فميزه عن باقى المتقدمين لمعموديته أن جميع من عمدهم بخلافه كانت ترتسم على وجوههم علامات القلق والتوبة ، أما هذا فقد تقدم إلى يوحنا وهو مختلف عنهم ، **ومع أنه لم يكن يعرفه بعد تماما كالمسيا إلا أنه أحس على الفور بل تحقق فى نفسه من كماله وعصمته فتوقف عن تعميده** إذ لم يكن يجرؤ على أن يغطس به فى الماء أو يضع يده عليه ، ولقد كان يوحنا فى الواقع محقاً فى موقفه هذا تجاه يسوع الكامل ... إذاً فما معنى هذه المعمودية التى لم تتم إلا بسماح يسوع نفسه بقوله ليوحنا : « اسمح الآن . لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل بر » **وهذا هو الجواب : إن فى هذه المعمودية إرتباط بين المعصوم والخطاة ، فذاك الذى لم تكن له خطية جاء ليأخذ مكانه**

بين الخطاة ونزل المعمودية معهم . نعم هنا قد أحصى مع إثمه كما حدث فيما بعد على الصليب . لقد ربط نفسه بالبشر الخطاة لكى ينزع خطيتهم ويكمل كل بر ــ فنزوله فى المعمودية كانت الطريقة الوحيدة التى سمحت له بأن يتدخل ليخلص البشر من الخطيئة **فهى تمثل لنا معمودية دمه أى الصبغة التى اصطبغ بها وقت الصلب وأشار إليها فيما بعد** . فمعمودية يوحنا هنا لم تكن إذا سوى ظل لمعمودية الصليب الرهيبة وكلتاهما دخلها يسوع لأجلنا ... وهكذا بدأ يسوع خدمته الجهرية بهذه المعمودية التى تعتبر النقطة الفاصلة لإعلان الملكوت مبدئياً هنا ثم نهائياً بالصليب ! **فوجود الخطاة يعتمدون من يوحنا فى الأردن كان ألزم إعلان عن موته بالاشتراك معهم لكى يتمم كل بر ويلغى الخطية ويعلن قدوم ملكوت البر الأبدى** ! وهكذا بوقوفه شخصياً على معنى الخطية فى البشر وإحتياجهم للخلاص منها عن طريق الفداء قبل الارتباط بما سيؤدى إلى الموت . **فهذه المعمودية إذاً هى إعلان بدء إرساليته لأجل قضية وخلاص البشر** ــ أنها إرتباط نعمته ومحبته معنا بمعمودية الموت والدم التى لم يشركنا فيها وإنما صار من إمتيازنا الآن أن نتمتع بمعمودية الحياة والنار !! ولسنا ندرى هل يجهل هذا الكاتب إذاً هذه « العصمة اللامتناهية » التى للمسيح المقررة وخاصة فى الإنجيل الذى يملأ صفحات كتابه باقتباسات منه بالطريقة التى تتفق مع نهجه وما اختاره لنفسه من تفسير ، أم هو كذلك يتجاهل الشهادات الأخرى عن هذه العصمة بغية التنكر لها والتشكيك فيها !؟

والواقع أنه لم يستطع أى معلم من البشر وهو يدعو الناس إلى التوبة أن يتجنب الإشارة إلى نفسه وإلى خطاياه بل **أنه كلما كان أكثر قداسة كلما انتحب أكثر معترفاً بخطأ ما** ، لقد كان له أعمق معرفة بشر الخطية ومع ذلك فلا ظل لها عليه ولا لطخة منها لصقت به لأنه قد ولد قدوساً بلا خطية وعاش كذلك حتى أنه وقف وسط أعدائه المعاصرين كما يواجه مقاوميه فى كل جيل بقوله لأولئك وهؤلاء جميعاً : « **من منكم يبكتنى على خطية** » (**يوحنا ٨ : ١٤**) **يا له من تحدى ! ومَنْ ياترى مِنْ بين البشر يستطيع أن يقدم مثله** ؟؟ فهو وحده الذى قال أيضاً : « يأتى رئيس هذا العالم (الشيطان) وليس له فىّ « شىء » (يوحنا ١٤ : ١٣) فلم يكن للإنسان ولا للشيطان أن يجدا فيه أى عيب !! وهذا يدل صراحة على أنه لم تنسب إليه خطية قط إذ هو المنزه عن كل شر وإثم !! فلم يذكر عنه قط فى أى كتاب من كتب الأديان بأسرها بأن له وزر أو خطية كباقى الرسل والأنبياء وذلك لأن الله قد حفظ العذراء والمسيح من غواية الرجيم .

وفى تفسير لفظة « المسيح » نجد أن هناك من قال أنه سمى « المسيح » لأنه مسح من

الأوزار والآثام ، وهناك من يقول بأنه سمى هكذا لأنه خرج من بطن أمه ممسوحاً بدهن طاهر مبارك وغيرهم قال بأنه تسمى « المسيح » لأن جبريل مسحه بجناحه وقت ولادته ليكون ذلك صوناً له من مس الشيطان !! والقول القاطع أنه تسمى بالمسيح لكونه « الممسوح » من الله ملكاً ونبياً وكاهناً ... !!

ثم نأتى بعد هذا إلى الأحاديث التى شهدت بوضوح وجلاء لسقوط البشر أجمعين وعصمة المسيح دون سواه ويتصدرها القول : « كل ابن آدم يطعنه الشيطان فى جنبه بأصبعه حين يولد إلا عيسى ابن مريم عليه السلام حجبه الله تعالى عنه ، فذهب يطعن فطعن فى الحجاب » . وآخر يقول : « ما من مولود من بنى آدم إلا نخسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخا من نخسه إياه إلا مريم وابنها »

وفى تفسير معنى تلقيب المسيح « بروح الله » نجد الأقوال الآتية التى تستحق الإثبات والتسجيل وهى على التوالى كما يأتى :

(١) إن المقصود بهذا التعبير إنما هو التشريف والتفضيل والتعظيم .

(٢) إن هذا التعبير استعمل للمسيح لأنه كان سبباً لحياة الخلق فى دينهم أو بعث الحياة فى القلوب المائتة .

(٣) إن هذا اللقب اختص به المسيح لأنه كان رحمة من الله على الخلق .

(٤) سمى المسيح روحاً لأنه كان يحيى الموتى .

(٥) إن هذا اللقب معناه أن المسيح ذو روح صادرة من الله بغير وساطة فى كلا الأصل والجوهر .

(٦) يسمى عيسى عليه السلام روحاً لأنه لم تتضمنه أصلاب الفحول ولم تشتمل عليه أرحام الطوامث إنما كان أمراً من الله تعالى . هذه هى خلاصة الآراء عنه وهى كلها تعترف للمسيح وحده بشخصية معصومة بريئة من الذنوب والآثام وذلك بسبب مسحته الخاصة التى بناء عليها سمى مسيحاً ، **فهذا الإقرار للمسيح وحده بالعصمة التامة دون البشر أجمعين ، فإنهم جميعاً غير معصومين ، ينطوى حتما على الاعتراف له بلاهوته المجيد وإلا فلا تعليل لصفاته وحياته الخالية من الخطية .**

هذا هو مسيح الأجيال كلها الذى لم يستطع أعداؤه أن يمسكوا عليه ذلة أو يجدوا فى حياته علة من خطأ أو شبه شر من هفوة أو كلمة نابية أو نظرة دنسة أو موقف معيب ... أنه وحده الذى وصف « بالقدوس » وأنه قدوس بلا شر ولا دنس قد انفصل عن الخطاة وصار أعلى من السموات (عب ٧:٢٦) ولا شك بأنه أمام طهارة المسيح ونقاوته

فى ذاته وتصرفاته وعصمته التامة فى الظاهر والباطن يرى أعظم الأنبياء والقديسين نفسه بأنه قزم أمام عملاق !!

هذا هو المسيح المثل الأعلى للقداسة مؤسس أقدس ديانة فى العالم ، إنه « عمانوئيل » أى « الله معنا » وسيأتى اليوم الذى فيه يقدم له الإكرام العام ويتوج رباً على الكل ، إذ هو رب الجميع !! إنه وحده بين البشر صاحب « العصمة اللامتناهية » التى فاض منها الطهر والنقاء **وهى التى جعلت منه أعظم مصلح اجتماعى فى تاريخ البشر فهو أول من علم وعمل بمبدأ إذابة الفوارق بين الطبقات وإزالة الفوارق عن طريق إصلاح القلوب وتصفية النيات لتكون خالصة لوجه الله تعالى !!** وهذا كله يدل على امتيازه الكلى وخروجه من صف الطبيعة البشرية الساقطة ذات الضعفات والنقائص **والتى هى واحدة فى الجميع تسير على وتيرة واحدة مشتركة فيما بينهم ماعدا هذا القدوس اللامتناهية عصمته الذى تميز عنهم جميعا !!** لا غرابة أن يقول عنه بوشنل **بأنه هو نفسه « معجزة » فقد جمع فى نفسه معجزة الجمال السماوى وهى المطابقة التامة بينه وبين الحق !!** وبذلك استطاع أن يضع نفسه فى مقدمة البشر أجمعين ، وأن يسمو بصفاته فوق كل التعاليم والأوصاف البشرية التى خطرت ببال الناس مظهراً فى حياته صفات ممتازة فى مجموعها ويستحيل على أى إنسان من بنى آدم أن يتصف بها مثله !!

فإذا كان هذا هو مركز المسيح الأدبى وإذا ما ذكرنا أن العصمة لله وحده وأنه هو تعالى المنفرد بالكمال دون شريك أو شبيه أفلا تكون عصمة المسيح هذه دليلاً آخر يبرهن قطعاً على لاهوته ويثبته !؟

الفصـــل الخامـــس
المتفـــوق بلا مثيـــل

« لأنه من فى السماء يعادل الرب . من يشبه الرب بين أبناء الله » (مز ٨٩ : ٦)
« والكلمة صار جسداً وحل بيننا ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب » (يو ١ : ١٤)

● ● ●

ينتقل مؤلف كتاب « المسيح إنسان إم إله » فى الفصل الثالث منه إلى « حديث المعجزات » وهو يعتبرها دليل عيسى الأول وبرهانه ... بل الركيزة الأولى التى قامت عليها المسيحية مستشهداً فى ذلك بقول منسوب لأحد علماء الدين جاء فيه « إن أول أصل قامت عليه المسيحية وعمادها هو خوارق العادات ، فإذا قرأت الأناجيل المعتمدة فلا تجد للمسيح دليلاً على صدقه إلا ما كان يصنع من الخوارق التى تطيل الأناجيل فى شرحها وتزيد فى عددها **فخوارق العادات من أظهر الآيات على صحة الاعتقادات** » ويقف القائل عند هذا الحد فى قوله بينما يستطرد هذا الكاتب الحديث إلى القول بأن هذه المعجزات ليس فقط هى التى لجأ إليها عيسى لتأييد دعواه وإنما كانت أيضاً باباً نفذت منه دعوى القول بتألهه ، فما دام يشفى الأمراض والأوجاع ، ويرد البصر والحياة **ويأتى بالخوارق التى يعجز عنها سائر البشر فلا شك أنه ليس إنساناً عادياً والأرجح أنه إله وابن إله أو بعض إله نزل من السماء وأتى إلى الأرض يعرض على الناس مكنات الآلهة وقدراتها على البشر** (ص ٦٨) ثم يعود فيؤكد ذلك بقوله : « كانت معجزات عيسى باباً آخر نفذت منه دعوى القول بتألهه فما دام يشفى المرضى ، ويحيى الموتى فهو الله نفسه أتى من السماء ونزل إلى الأرض ليعرض على الناس قدرات الآلهة » (ص ١٨٧ و ١٨٨) .

● **الغرض من المعجزات ومصدرها :**

وإذ يتقدم هذا الكاتب فى عرض رأيه عن هذه المعجزات نجده على عكس ما تقدم ذكره ينفى إستناد عيسى إليها فى تأييد دعواه مقرراً بأنها لم تكن الوسيلة المثلى لإقناع الناس ولذلك زهد فيها عيسى كما كان يحرص على إخفائها ويستشهد عن إستحالة الربط بين المعجزة والإيمان بقول بترسون سمث عن هذه المعجزات : « بأن المسيح لم يكن قصده فى صنعها اكراه القوم على الإيمان به ولكنه قد إستخدم القوة الإلهية بالأكثر للترويح عن البشر وإسعادهم » (حياة يسوع ص ٧٨) ومن ثم فإن هذا الكاتب نفسه يعود فيقول عنها بأن لا جدوى منها ولا قيمة فيها لأنها قد تشغل الناس عن جوهر الدين والرسالة ... (ص ٧٧ و ٨١) وهو يناقض هذا كله فيعود ويقول : وليست المعجزات على فرض صحتها ونسبتها لله ... إلا وسيلة مناسبة لحمل الناس على الإيمان (ص ١٨٩) لكنه يقتبس قولاً أشد غرابة من كل ما ذكر عن كتاب « قصة الحضارة » لول ديورانت (جـ ٣ ص ٢٢١-٢٢٢) هذا نصه : « ويبدو أن عيسى نفسه كان يحس بخَور نفسانى بعد أن يقوم بمعجزاته وأنه كان يحاولها وهو كاره . » (ص ٨٨ و ٨٩)

ولا شك أن التناقض بين هذه الأقوال الأخيرة وتلك التى سبقتها واضح تماماً فإن القول باقتصاد المسيح فى معجزاته يتنافى مع القول السابق بأنه صنع من الخوارق ما أطالت الأناجيل فى شرحها وتزيدت فى عددها ، كما أن قوله الأخير بأن لا جدوى منها ولا قيمة فيها يتنافى مع ما سبق أن أقر به من أنها من أظهر الآيات على صحة الاعتقادات ــ مما يدل على أنها كانت مؤيدة مثبتة لصحة الرسالة والدعوة وهى كذلك إلى يومنا هذا ــ وأما الادعاء على المسيح بأنه كان يحس بِخَوَر نفسانى بعد أن يقوم بمعجزاته ولذلك كان يحاولها كارهاً فهو يتنافى مع ما سبق أن قال به هذا المؤلف نفسه من أن هذه المعجزات كانت باباً لإعلان ألوهية عيسى وأنه جاء إلى الأرض يعرض على الناس مكنات الآلهة وقدراتها بل أنه ليعتبرها شهادة له بأنه هو الله ، **وما يقوله عنه مما سلف ذكره إنما يتعارض تماماً مع نسبة الألوهية إليه إذ لا يتفق معها على الإطلاق ما ينسبه إلى المسيح من إحساس بخور نفسانى بعد صنع معجزاته التى ينسبها فى مواضع أخرى لله معتبراً إياها بأنها « أعمال الله »** فسواء أكان عيسى يصنعها لكونه إلهاً أو لكون الإله يصنعها به فإننا لا نقره بأن **صنعها يأتى كرها وينتج خواراً نفسياً كما يزعم مما لا يليق نسبته إلى الله بأى حال من الأحوال إذ أنه لا يتفق مع التسليم بأنه القادر على كل شىء وفضلاً عن ذلك فإن طبيعة المسيح البشرية أى ناسوتيته لم تصب بالأمراض التى تضعف النفوس وتشوهها فكان**

يقوم بكل أعماله بسهولة وطبيعياً بدون تكلف أو تعب ! ولذلك فإنه لم يكن خائر العزم فى أى وقت !

وهو مع تسليمه بأن تلك المعجزات قد تمت بقدرة الله فإنه ينسبها حينا إلى الشيطان بحسب رأى البعض ، ويقرر بأن هناك من تخفف فأرجعها إلى دراية عيسى بالطب وينسب هذا الرأى إلى صيدلى يونانى إسمه فليمون يعزو إليه القول بأن عيسى زار الهند وبلاد ما بين النهرين وأنه أخذ عن الكهنة أسرار الشفاء ، وعاد يقول برأى آخر برد هذه المعجزات إلى الإيحاء والوهم أى أنها تمت بتأثير مغناطيسى من روح قوية واثقة من نفسها فى روح قابلة للتأثر ـــ والايحاء فى نظره هو إيمان الناس بقدرة عيسى على الشفاء وإنه لذلك كان يختص بها أشخاصاً معينين ... (ص ٨١ و ٨٧)

ولا حاجة بنا للرد على الشق الأول من هذه الآراء التى يسردها كمن يقوم لغير سبب ظاهر بجمع مختلف المواقف من نحو معجزات السيد المسيح ويكفينا بهذا الصدد أن نشير إلى إعترافاته التى يقول فيها عن هذه المعجزات بأنها من عند الله وإذاً فهى أعمال الله (ص ٧٢) **كما يؤكد بأن إنكارها وإرجاعها إلى السحر والشعوذة وإلى الجن والشياطين وإلى النطس والطب وإلى الإيحاء والوهم إنما هى شائعات إبتدعها اليهود لطمس معجزات عيسى وتكذيبها حتى إنهم جعلوه « بعلزبول » رئيس الشياطين . (ص ٨٩)** ويعنينا هنا إذاً الشق الثانى من أقواله لأننا نعتقد بأن الكاتب يميل إليه ، يتضح ذلك من قوله : لماذا كان يحرص عيسى على إخفاء المعجزات وإبقائها فى طى الكتمان ... وعلى ألا يفعلها وسط الجموع أو بين الجماهير ، هل كانت فى معجزاته بعض ثغرات كان يخشى أن تلحظ الجماهير ما فيها من قصور وتتناولها بالنقد والتجريح ، خاصة وأن أغلب آثار تلك المعجزات كانت تعتمد على الإيحاء وعلى إيمان الناس بقدرة عيسى على الشفاء بحيث أن غير المصدقين لم تكن تفلح معهم المعجزة (ص ٨١) ويعود فيقرر نفس الحقيقة بأن الذين شفاهم المسيح إنما كان ذلك بإيمانهم فقط ولذلك فإنه لم يستطع الإتيان بمعجزة ما عندما ذهب إلى وطنه وكذا أثناء مقابلته لهيردوس (ص ٨٩) .

وإرجاع هذا الكاتب معجزات المسيح إلى « التأثير المغناطيسى » و « الإيحاء » ليس بالأمر الغريب فى العصر الحاضر الذى ظهر فيه العصريون « المودرنزم » وهم يحاولون التشكيك فى هذه المعجزات **بقولهم : إن المسيح كان شخصاً عبقرياً وكان يتميز بشخصية مغناطيسية وأنه بالقوة المغناطيسية أثر فى المفلوجين المرضى وشفاهم . « ولكن معجزات**

المسيح كانت فوق العبقرية ! إنها أسمى من القوى المغناطيسية وأعجب من القدرات العقلية وكل أنواع الإيحاء ! لقد فاقت كل أساليب علم النفس فى العلاج ، مما يدل على إنها معجزات إلهية فى كل ما أحاط بها وفى دقائق تفاصيلها . فقد شفى ابن خادم الملك دون أن يرى المريض وكان ذلك بكلمة من فمه ، فلم يكن هناك أى مجال لممارسة أى إيحاء أو أى تأثير مغناطيسى مزعوم ! (يوحنا ٤) وأظهر قدرته على شفاء الأمراض المستعصية كمريض بركة بيت حسدا وكان به المرض منذ ثمان وثلاثين سنة . وهذه مدة طويلة تؤكد بأن شفائه لا يمكن أن يتم عن طريق الطب إذ يستعصى عليه أن يجد له أى علاج ! (يوحنا ٥)

وأما تفتيح المسيح عينى المولود أعمى فإننا نجد هنا معجزة خلق تتحدى العلم وتخرس العصريين إذ أن المسيح وقد طلى بالطين عينى هذا الأعمى خلق له من الطين عينين جديدتين ودعاه للإيمان به كابن الله الذى أعاد له بقدرة لاهوته نور عينيه ! (يوحنا ٩) أما معجزة إطعام الجماهير من خمسة أرغفة وسمكتين فأى دخل للعبقرية والمغناطيسية والقدرة الايحائية فيها !؟ ألا تقدم هذه كلها دليلاً ملموساً على قدرة المسيح الإلهية !؟

● **معجزات إقامة الموتى ودلالتها :**

تؤكد أبسط قواعد المنطق والعقل بأن مثل هذه المعجزات ــ أى إقامة الموتى ــ دليل ناطق شاهد بالألوهية ويقطع بأن من يقوم بها لا بد أن يكون إلهاً لأن الله سبحانه هو الذى يُحى ويُميت ولا شك أن هذه الحقيقة فى حد ذاتها قد حيرت مؤلف كتاب « المسيح إنسان أم إله » فتُرى أى موقف يتخذ هنا !؟

نراه يزعم مبدئيا فى حادثة إقامة لعازر من الموت بأن انزعاج يسوع بالروح وإضطرابه وبكائه إنما كان لسبب خوفه من الفشل وما هذا شأن الواثق من عمله المطمئن إلى إنجاز مهمته بإعادة الحياة إلى صديقه ، وبينما يرد المعجزة إلى ابتهال عيسى إلى الله أن يستجيب له وألا يرفض طلبه ولا يرد وجهه ويقيم صديقه من الموت من أجله ، ومن أجل الجموع الشاهدة لتؤمن (ص ٧٥) إذاً به يعود فينكرها بقوله : « هذا الحادث الكبير أى إحياء لعازر من الموت بعد بقائه فى القبر طوال أربعة أيام ــ من أعظم معجزات عيسى ، ومع ذلك فقد أغفل الكثيرون ذكره فهل وقع هذا الحادث فعلاً أم أنه كان من وحى خيال يوحنا . » (ص ٨٤) **ويقتبس من إنجيل برنابا ــ غير المعتمد ــ** رواية متعلقة بإحياء ابن أرملة نايين من الموت مضمونها أن بعض الجنود الرومان كانوا موجودين أثناء هذه

الحادثة ووبخوا شعب نايين بالقول : لقد زاركم اليوم أحد آلهتكم وأنتم لا تكترثون له ... فوسوس الشيطان فيما بينهم بهذا الأسلوب حتى أنه أثار شغباً وسطهم فقال قوم منهم : إن الذى زارنا هو إلهنا ، وقال آخرون : إن الله لا يرى » (ص ١٨٨) **وهو بعد كل هذا لم يتعرض لهذه المعجزة فى ذاتها بأى نفى مهما كانت هذه الأقاويل التى يحيطها بها من مصدر غير معتمد !!**

أما عن إقامة ابنة يايرس فإنه يطعن فى هذه المعجزة بجرأة نادرة فيقول بأن ذلك لم يكن حقيقياً لأنها لم تكن ميتة بل نائمة ولعلها كانت مصابة بمرض التخشب أو داء الثبوت وهو مرض عصبى يفقد الارادة ويصلب العضلات !! (ص ٨٨)

وواضح إن معجزات الإحياء من الموت هذه تتحدى بصورة قاطعة كل منكرى لاهوت المسيح ليس فقط لأن العلم رغم اختراعات القرن العشرين لا يزال عاجزاً أمام سر الموت المحير ، بل ولأن المسيح قد واجه الموت فى مراحله كلها : فقد أقام أبنة يايرس بعد أن فارقت الحياة على الفور و لم تكن مجرد غائبة أو فى حالة إغماء ويشهد الإنجيل بأن يايرس نفسه والد الفتاة أقر بموتها عند مجيئه ليسوع بقوله : « إن ابنتى الآن قد ماتت » وتأيد ذلك بشهادة من جاءوا من بيته قائلين له : ابنتك ماتت : لماذا تتعب المعلم بعد » **حتى أن المسيح حينما قال عن موتها بأنها نائمة ــ ووصف الموت بالنوم كان هو أول من أبرزه وحققه بقدومه وسلب من الموت رهبته وعقابه ــ ضحكوا عليه لقوله هذا ...** كما أقام ابن أرملة نايين وهو فى نعشه محمولاً إلى القبر و لم يدفن بعد ــ والكاتب لم يمس هذه الرواية بشىء فى الصميم ، أما لعازر الذى أقامه المسيح بعد أربعة أيام من دفنه فى القبر فقد حيرت الكاتب قصته فظن أن بكاء المسيح إنما هو من قبيل الخوف من الفشل **فى حين أنه بكى حناناً وعطفاً مشاركة منه للحزانى والمتألمين** ، فهو كالإنسان الكامل بكى مع الأختين الباكيتين ولكن لم يكن معنى ذلك أنه أحس بعدم القدرة على إقامة لعازر من الموت لأنه هو بنفسه الذى بعد هنيهة صرخ بصوت عظيم لعازر هلم خارجاً فخرج الميت ، ولا يطعن فى هذه المعجزة ما يسميه الكاتب بابتهال عيسى إلى الله وحقيقته إنه قدم الشكر لأبيه مؤكداً بأنه قد سمع له ومردفاً بأنه يعلم بأنه فى كل حين يسمع له ، وهذا تأكيد للوحدة الكائنة بينه وبين أبيه وعدم انفصالهما فى العمل ولا شك أن تاج معجزات المسيح قيامته الفريدة من بين الأموات فما كان من الممكن أن يمسكه الموت فى قبضته ويبقيه فى القبر ... وهكذا تقدم معجزة قيامته من الموت الدليل الساطع على تأييد دعواه وتأكيد لاهوته التام !

• أصل المعجزات ومصدرها :

يتساءل هذا الكاتب عن صاحب المعجزات الحقيقى ومن يكون ويخصص صفحات طويلة يسرد فيها أخبار المعجزات مدعياً نسبتها إلى الله فحسب وأنها لا تدعو إلى دهشة الناس من عظمة عيسى وتقديسه وتألهه ، فهى أعمال الله وليس أمام عيسى إلا أن ينفذ ما رسمه الله وأن ينجز العمل الذى كلفه سبحانه به (ص ٧٢ و ٧٤) ويتخذ من رفع المسيح نظره نحو السماء سندا للقول بأنه كان مجرد أداة سخرها آخر لإظهار هذه المعجزات فهو ليس صاحبها ولا مصدرها (ص ٦٨) ويعود فيقرر بأن عيسى لم ينسب لنفسه الخوارق والآيات التى أتاها وإنما يردها إلى « إصبع الله » و « روح الله » بل يستند إلى قول المسيح عن نفسه بأنه : « لا يقدر أن يفعل من نفسه شيئاً (يو ٥ : ٣٠) ما يعتبره اعتراف منه بالتسليم الكامل بالعجز أمام قدرة الله (ص ٧٦) . وفى حادثة معجزة إشباع الآلاف نجد الكاتب يتساءل عن سبب رفع عيسى نظره إلى السماء ولمن يتجه ؟

ومن الذى يطلب منه العون على إتيان المعجزة ؟ ... ومن ياترى الذى صلى إليه عيسى وحمده وشكره على هذه المعجزة ؟ هل كان يصلى إلى نفسه ويحمدها ويشكرها ؟ أم كان يشكر آخر ؟ ومن هو هذا الآخر ؟ (ص ٦٩)

أسئلة يروق له أن يرددها ويتركها معلقة كأن لا جواب عليها وذلك من قبيل التهكم على العقيدة المسيحية فى الأقانيم ، وهذا أمر ليس بغريب على كل منكر لها . وهو فى استغرابه هذا قد فاته حديث مشهور يقول : « سبحانك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » ولسنا ندرى كيف يواجه مثل هذا القول وبماذا يفسره وكيف يعمل أيضاً فى أحد أقسام الحمد وهو الذى يوصف بالقول : « حمد قديم لقديم » فهل كان الله هنا يثنى على نفسه أم كيف يحمدها أيضاً ، **والقول مثل هذا الحمد والثناء من الله لذاته وعليها ــ وهو واحد أحد ــ قول غير معقول وغير منطقى وهذه نتيجة محتومة لا مفر منها** ، مادام الأمر فى عقائد الأديان قد اتجه إلى برهان العقل فحسب وسيده على الموقف مما أوصله إلى الطعن فى معلنات أسفار الوحى ومقدساتها ؟!

وواضح من ذلك أن المعجزات التى كان يجريها المسيح دائماً إنما كانت تتم بالأقانيم الثلاثة معاً لأن فيه قد حل ملء اللاهوت جسدياً ولأنه لا إنفصال ولا إستقلال بين الأقانيم التى يمثلها هذا الملء فما كان يجريه كان يفعله بالآب الحال فيه وكذلك كان يتم بأصبع الله الذى هو روح الله بعينه ــ وهذا هو سبب قوله بأنه لا يقدر أن يفعل من نفسه شيئاً ــ **أى بالاستقلال عن أبيه وروحه** يفسره قول لاحق له يكمله وهذا هو

النص كاملاً : لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئاً إلا ما ينظر الآب يعمل لأن مهما عمل ذاك فهذا يعمله الابن كذلك » (يو ٥ : ١٩) وأيضاً « لأن الأعمال التى أعطانى الآب لأكملها هذه الأعمال بعينها التى أنا أعملها هى تشهد لى » (ع ٣٦) **فهل هناك أوضح من هذه الأقوال فى تبيان قدرة السيد المسيح على عمل المعجزات التى يريه إياها الآب وهو يعملها معه ولا فرق بينهما فى رؤيتها وعملها على الإطلاق** فهذا القول إذاً الذى يعتبره الكاتب اعتراف من جانب عيسى بالتسليم الكامل بالعجز أمام قدرة الله لا يدل على ما ذهب إليه **إذ هو لا يعنى تقييد الابن كأنه دون الآب فى القدرة على العمل بل على العكس يبين اتحاده بالآب فى العمل وعدم إنفصاله عنه فعدم قيامه بالعمل مستقلاً عن الآب ليس معناه العجز عن القيام به بمفرده بل معناه وحدته الكاملة معه فى القيام به وذلك لوحدته معه فى الجوهر** الأمر الذى يتحتم معه عدم استقلاله فى العمل عن الآب ، وقوله بعد ذلك : « لأن مهما عمل ذاك فهذا يعمله الابن كذلك » قاطع بإظهار مساواتهما فى السلطان المطلق والقدرة على كل شيء . وقوله بعدئذ أيضاً : « لأن الآب يحب الابن ويريه جميع ما يعمله » يدل على أن الآب أيضاً لا يعمل بالاستقلال عن الابن بل يعمل جميع ما يعمله فى كامل الاتفاق بينهما ولذلك قيل أيضاً بأنه « سيريه أعمالاً أعظم من هذه » أى من تلك التى عملها فى أيام جسده كآيات الشفاء والإحياء الجسدى وهذه الأعمال الأعظم تكشف عنها النصوص التالية وأهمها الإحياء الروحى وإقامة الموتى من القبور وكذلك المثول أمامه للدينونة إذ قد أعطى الحكم كله !

لذلك فإننا بدورنا نعود فنسأل هذا الكاتب وأمثاله : ماذا ترون فى المسيح ؟ هل إنساناً مجرداً أم إلها متأنساً !؟ فإن كان بحسب رأيكم مجرد إنسان فليس هو الذى سبقت الأنبياء وأخبرت به لأن أقوالهم وصفته بميزات اللاهوت وأفرزته عن عموم البشر فلا يمكن أن يكون إلاَّ « الإله المتأنس » الذى يقول عنه إشعياء أيضاً : « هوذا إلهكم ... هو يأتى ويخلصكم » (أش ٣٥ : ٤) فبقوله يأتى قد أوضح للناس خبر حضور الله بالجسد وهو الذى بحسب جوهره خال من الجسد وحاضر فى كل مكان ، ولكنه لما أراد أن يعطى إمارة لحضوره بالجسد أضاف لقوله سالف الذكر علامة كبرى بقوله : « حينئذ تتفقح عيون العمى وآذان الصم تتفتح حينئذ يقفز الأعرج كالإيل ويترنم لسان الأخرس » (ع ٥ و ٦) **وهذه المعجزات كلها قد أخبر بها الأنجيل الشريف عن يسوع المسيح أنه أجراها بكيفية تامة الوضوح تثبت لاهوته حتى أنه قال : « صدقونى ... وإلاَّ فصدقونى لسبب الأعمال نفسها » (يو ١٤ : ١١)**

يتضح من ذلك أننا لم نؤله إنساناً بشراً وإنما آمنا بالحقيقة أن الله قد صار إنساناً دون أن يتخلى عن ألوهيته ويقينا ليس فى مقدور إنسان ما مهما يكن شأنه أن يتأله ولكن الله يقدر بكل تأكيد أن يتأنس ، لذلك لم نقل عن يسوع المسيح إنساناً متألهاً ولكننا نقول عنه « إلهاً متأنساً » وهو مع صيرورته إنساناً حقاً لم يزل إلهاً حقاً !!

• التفوق الإعجازى للمسيح ومعناه :

يذهب الكاتب بعيداً ليعقد المقارنات بين معجزات السيد المسيح ومعجزات غيره من الرسل والأنبياء ، وحين يتحدث عن معجزات الحواريين وهم تلاميذ المسيح يذكر عنها بأنها تفوقت أحياناً على معجزات المسيح نفسه ... بل أنه ليعتبر أن معجزات بولس الرسول أسمى من معجزات المسيح مدعياً بأن المسيح لم يكن يتمكن من شفاء المريض إلا إذا ذهب إليه بنفسه وصلى عليه ودعا له بالشفاء أما بولس فكان جسده كله قوة وعافية وبركة حتى أنهم كانوا يأخذون المناديل والمآزر عن جسده ويأتون بها إلى المرضى فتزول عنهم الأمراض ... وأن بولس نفسه قد أحيا ميتاً هو افتيخوس وكذلك إيليا وأليشع وحزقيال الذى أحيا الله على يديه الآف الموتى وردهم إلى الحياة (ومعلوم أن ذلك كان فى رؤيا وقد فسرها الوحى فى موضعها) وهكذا بالنسبة لباقى التلاميذ يقول عنه بأنهم تمثلوا بعيسى ففاقوه وقلدوا معجزاته وهو يعود فيشير إلى معجزات أخرى فى نطاق خارج عما ورد بالتوراه والإنجيل بل وإلى معجزات الكاذبين وكيف حذر منها المسيح لئلا يضل بسببها المؤمنين والمختارين ... (ص ١٠٩-١١١) ويزعم من حادثة لسترا حين أراد الوثنيون تأليه بولس وبرنابا بعد معجزة شفاء الرجل العاجز بأنه هكذا تفتح المعجزات باب التأليه لعيسى وغيره فى كافة الأزمان وإن هذا التأليه لم يقتصر على عيسى وتلاميذه (ص ١٨٨-١٨٩) **وترى بداءة أن الإقرار بالمعجزة لإثبات النبوة أمر لا يقبل الجدل فإن صفحات الكتاب المقدس معلنة أن مثل هذا الإنجاز تصديق أكيد للرسالة** ، ولذلك فإن كل نبى أرسله الله قد أجرى معجزات سواء فى ذلك أنبياء العهد القديم أو رسل العهد الجديد **لكنهم لم يفعلوا المعجزات بقوتهم الشخصية بل بقوة الله أما المسيح فقد أجرى المعجزات الشخصية** وهذا دليل آخر يضاف إلى ما سبقه من الأدلة لإثبات لاهوته ولذلك لم يكن بغريب أن تبدأ المسيحية بالمعجزات وتنتشر بها بل أن الإنسان المعاصر يحن اليوم إلى إله صانع المعجزات بعد أن احتل العقل بالاختراعات الحديثة مكان الإعجاز ، **ومن ثم فإن محبة الإعجاز ليست علامة جهل بل دليل رغبة نحو الأسرار الغيبية فالعلم إذاً لا يمنع الرغبة فى المعجزة بل يؤيدها ويدعو إليها ...**

وواضح من العهد الجديد ـــ وخاصة سفر الأعمال ـــ إن معجزات المسيح لم تنته بعد بسبب صعوده إلى السماء فاسمه مازال يعمل بقوة فى الأرواح والأجساد . لقد استمر تأثير المسيح قوياً وفعالاً بعد صعوده إلى السماء وسفرالأعمال يحمل أصدق البراهين على ذلك . **ولا وجه للمقارنه من هذا القبيل بين المسيح وتلاميذه لأن الإنجيل يؤكد بأنه هو الذى أعطاهم السلطان للشفاء بل وإقامة الموتى** ... وكذلك أعطاهم الوعد بأنهم سيعملون أعمالاً أعظم مما عمل هو لأنه ماض إلى أبيه ، وسيرسل الروح القدس الذى يوسع نطاق العمل المعجزى فى أنحاء العالم فلا يقف عند حدود فلسطين أو يتوقف مرتبطاً بزمان وجود المسيح على الأرض فحسب **ومن ثم تعاظمت الأعمال المعجزية ولا تزال إلى يومنا هذا ، لكنه حينئذ وإلى اليوم لم تكن لتتم أو يمكن إجراؤها إلا باسم المسيح** وهكذا كان إسم الرب يسوع يتعظم ، ولذلك فإن محاولة الكاتب فصل معجزات التلاميذ عن السيد المسيح واسمه أمر باطل منعدم الأساس لأن ما تم بالمسيح أيام جسده على الأرض هو بعينه وأكثر ما تم من قبله بواسطة تلاميذه ورسله الكرام ، **فالمعجزات التى فعلوها إنما كانت بإسم المسيح وبقوة لاهوته ليس إلا ، وهذا هو مرد الشىء إلى أصله !**

حقاً أن كل من يتأمل فى هذه المسألة يجد أنه كلما ازداد فيها تعمقاً بعد كثيراً عن الفرض أن يسوع مجرد إنسان فإنها تحمل فى معناها على مدى الأجيال فكرة نشر ملكوت السموات على الأرض أى رفع كل الجنس البشرى إلى الله من قلب دوامات الآلام والأحزان بمعجزات الشفاء والإنقاذ المتتابعة **فالمعجزات من هذا القبيل تعتبر أنسب شىء يتحدث عن ملكوت الله وسيادته لصالح البشر وتحريرهم** ... وهكذا نرى هنا كائناً قد ظهر فى العالم وهو ليس منه ، كائناً قد أتى من عند الله وهو فى الوقت ذاته بهاء مجده ورسم جوهره **ولكونه كائناً فائقاً عن البشر فواضح أن نواميس الطبيعة نفسها قد صارت فى وفاق مع صفته الفائقة الطبيعة البشرية ويعتبر من الشذوذ إذا لم يأت أموراً فائقة القوة البشرية** ، بل أنه أمر لا يصدق فلسفياً إذا كان لا يصنع معجزات فريدة النوع ، وذلك بإزاء التسليم التام أن نواميس الكون لا يمكن إبطالها إلا بعمله الفائق الطبيعة فهل يمكن أن تكون هذه النواميس هكذا تابعة لقوته ليجعلها واسطة لإظهار آيات ومعجزات **إلا ويحمل ذلك فى حد ذاته معنى الاعتراف له بأنه ذو قوة فائقة للبشر !؟**

لقد أظهر سلطانه الإلهى **على الطبيعة** فحين هاج البحر وكان هو نائماً فى مؤخر السفينة ظن التلاميذ أن ينقذوا الموقف بمجهودهم ويتركوه نائماً فى هدوء ولما استحال عليهم الأمر ايقظوه فقام وانتهر الريح وقال للبحر اسكت ابكم فسكنت الريح وصار هدوء عظيم ! ويقول

كامبل مورجان بأن لفظة « أسكت » فى اللغة الأصيلة وردت فى معنى « اختشى » وهى تثبت سلطانه الفائق على الرياح والأمواج ــ أفليس هو الذى أتاهم ماشياً على أعالى البحر فى وسط الليل المظلم والأخطار تحدق بهم ــ لقد هابته الطبيعة وخضعت لمشيئته وسلطانه ــ **فمن يكون هو إذاً أمام هذه المعجزة الفائقة التى لا يمكن مواجهتها ولذلك فقد أغفلها الكاتب وكأنها لا تدخل فى نطاق المعجزات لعلمه بأنها تثبت لاهوت السيد المسيح وعظمته كخالق الطبيعة بأسرها !؟**

كما أظهر نفس سلطانه هذا **على الأرواح** فى العالم غير المنظور ، فلم يستطيعوا أن يردوا ولا أن يقاوموا سلطانه ، فكان يخرج الأرواح بكلمة ولو كان متجمعاً منها معاً عدة آلاف يتكون منها « لجئونات » !

ومن ثم فقد كانت أعماله كلها أعمال رحمة للمتألمين وهذا فقد شفى جميع المصابين بأمراض مهما كان نوعها حتى **قيل عنه بأن كل من وقع عليه أو لمسه نال الشفاء** . وقد أعلن سلطانه على كل شىء قبيل صعوده بقوله « دفع إلى كل سلطان فى السماء وعلى الأرض » (متى ٢٨ : ١٨) وهذه صفة لا يمكن أن تنسب لغير الله ــ أنه تصريح جرىء قد تثبت قبل إعلانه بالأعمال العظيمة التى عملها السيد مدة خدمته على الأرض !

ومما يدخل ضمن قدرته **قيامه بالخلق والحفظ** ويقيناً لا يستطيع مخلوق ما أن يشارك الله فى عملية الخلق ولا فى حفظ الخلائق لعدم قدرته على الإحاطة بكل شىء وإستحالة امتداد عنايته إلى دائرة الكون بأسرها فلا يكون هذا للمسيح إلا إذا كان هو الإله القديم الأزلى وهكذا امتدت هذه القدرة الفائقة إلى صنع العجائب والمعجزات وسائر القوات ، وأيضاً هى تفعل فى القلوب للخلاص والتجديد والإحياء وستظهر قريباً بإقامة الموتى من قبورهم عند سماعهم صوته !

وفى دائرة سلطانه الكاشف لكل الأمور نجد أن علمه كان شخصياً ذاتياً حتى أن أفكاره ومشاعره والحقائق التى أعلنها هذه كلها لا يمكن توضيحها من النظام البشرى ولا من طبيعة الأحوال فإن تعليمه العميق الذى يتخطى أقوى الصعاب ويوجد لها أروع الحلول سر لا يمكن إنكاره ولا توضيحه !

أما عن سلطان حضوره فى كل مكان فى وقت واحد : فى السماء والأرض ، وتحت التينة مع نثنائيل وفى كل إجتماع يعقد باسمه حضوراً شخصياً لاتراه العين البشرية المجردة ــ أنه وهو على الأرض يخبرنا عن الآب ويعلن فى نفس الوقت بأنه فى حضن الآب وبعد

صعوده إلى السماء يعلن عن حضوره مع تلاميذه ثم مع جميع المؤمنين فى كل زمان ومكان سواء أكانوا أمام الملوك والولاة يحاكمون أو فى الاجتماعات الروحية يتعبدون !؟ فهو مع كل مؤمن به فى كل أقطار العالم الفسيح كل الأيام . فمن يكون المسيح إذاً !؟ وهل يمكن لأى مخلوق من الملائكة أو البشر كائناً من كان **أن يكون موجوداً فى كل مكان وزمان بهذا الإطلاق الفريد** !؟ إن هذا لا يكون إلا الله وحده القائل بلسان أرميا « أما أملأ أنا السموات والأرض يقول الرب » (ص ٢٣ : ٢٤)

ولما كان المسيح حاضراً فى كل مكان لذلك يعبده المسيحيون ويعتمدون عليه فهو قريب من كل الذين يدعونه أنه فى السماء يمنحنا بركاتها وعلى الأرض يضبط حركاتها وفى الأرواح ليقدسها و القلوب ليحفظها ، لأنه العليم بكل شىء الغير متغير !!

إنه المرجع الأخير لتقرير المصير العام فهو الديان الذى سيقف الجميع أمام عرشه للقضاء فهل يستطيع أى كائن أن يكون هو الديان فى حين أن الله وحده هو الديان مالك يوم الدين !؟

وهو كذلك لأن فيه يحل كل ملء اللاهوت ، واللاهوت من أول الكتاب المقدس لآخره مختص بالله وحده فكيف يحل فى المسيح إذاً لم يكن هو الله !؟ ولكونه كذلك نجده يوصف بأنه « يهوه » « الرب » أى « الكائن الموجود بذاته » متضمناً فى عبارته المشهورة « أنا هو » وقد لقب بهذا اللقب ٤٠٠ مرة كما تلقب بلقب الجلالة « الله » وبالكلمة وبابن الله وبالقدوس وبصورة الله غير المنظورة والبكر ... إلخ .

ونحن نعلم لذلك بأن سلطانه لهذا كله لا يقف عند حد **فهو إذاً صانع العجائب والمعجزات التى لا تعد ولا تحصى ولم يأت بواحدة منها أعظم الأنبياء ولا الأنبياء فى مجموعهم** ... ألا يدل ذلك على قوة فائقة وسلطان جبار يتسلط على عناصر الطبيعة وأرواح الشياطين وأرواح وأجساد وعقول البشر !؟ وألا يظهر ذلك سلطانه الشخصى الفائق الذى يتفرد به !؟

لا شك أن الادعاء سهل ولكن إثباته ليس بالأمر الهين لا سيما إذا كان الادعاء خطيراً مثل إدعاء الألوهية ، فلا يقدر إنسان أن يقول عن نفسه أنه إله أو يقبل ذلك من غيره إلا إذا كان له سند من ذاته وصفاته وأعماله كما لا بد أن تسنده النبوات الواردة فى الكتاب المقدس وتطبيقاتها . وفيما تقدم الاثباتات الوافية فى ذلك وهى كافية جداً لمن يريد الاقتناع !!

وهكذا تظهر المعجزات لاهوته وتقدم دليلاً آخر فريداً فى معناه يضاف بدوره إلى الأدلة السابقة التى أوردناها فى هذا الكتاب وهو بلا شك مسك ختامها .

تـم بعـون الله

رقم الإيداع : ٩٣١٧ / ١٩٨٩

دار العالم العربي للطباعة
٢٢ شارع الظاهر – القاهرة ت: ٩٠٦٧٠٦

هذا الكتاب

ابرز ما كتب عن ((المسيح)) فى اللغة العربية إذ يدور حول ((حقيقة المسيح من هو !)) وهو كتاب دفعت إليه الضرورة المطلقة , إذ كان لابد من التقدم للدفاع عما أعلنته ((المسيحية)) عن مسيحيها العظيم منشؤها ومؤسسها , وذلك بعد ظهور عديد من المطبوعات كتبها بعضهم بغير تخصص ولا رؤية أغلبها عن ((المسيح)) بالذات !!

ولما جاءت تلك الكتابات عامة مسخاً وتزييفاً للحقائق الايمانية والتاريخية ينقصها والدليل ويعوزها البرهان وخاصة لأن اقتباساتها مبتورة ومعزولة عن قمائنها التى تحيط بها , لذلك كان لابد من تصحيح هذا الوضع مراعاة لأمانة الحقيقة فى حد ذاتها وأظهارها بغير طمس أو تشويه , وذلك لأن لكل شىء برهاناً من نوعه , وهيهات أن تتبرهن العقائد الدينية بعيداً عن نصوصها المترابطة ومراجعها الاصلية ...

واما فصول هذا الكتاب . وهى تتحدث عن نفسها فى موافعها - فهى بهد الاهداء والتقديم تبدأ بالفصل الاول ((المخلص الالهى)) والثانى ((عمانوئيل - الله معنا)) والثالث ((الكامل المثالى)) والرابع ((القدوس المعصوم))والخامس ((المتفوق بلا مثيل)) !

نستودعه بين يدى القارىء العزيز ليكون بركة لكل من يصل إليه للوقوف على الحقيقة فى ضوء الإعلان المتكامل الذى أصبح بين أيدينا - وذلك ابتغاء الهداية وسلامة المصير !